

الجزء الأول

الجزء الأول

روي الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه علي الرحل قال: «يا معاذ»، قال ليبيك يا رسول الله وسعديك قال: «يا معاذ»، قال: ليبيك يا رسول الله وسعديك، ثلاثاً. قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله علي النار»، قال يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشرون؟ قال: «إذا يتكلموا» وأخبرها معاذ عند موته تأثماً^(١).

وبين ابن حجر العسقلاني في شرح الحديث أن معاذاً رضي الله عنه كان رديف النبي ﷺ أي ركباً خلفه علي حمار، وقوله صدقاً شهادة باللفظ وتصديق بالقلب، وأن يتحقق ما أورده قولاً بما تحراه فعلاً، وبين بالأدلة القطعية عند أهل السنة أن عصاة المؤمنين يعذبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة، وقوله «إذا يتكلموا» أي يمتنعوا من العمل اعتقاداً علي ما يتبادر من ظاهر الحديث، وقوله تأثماً أي خشية الوقوع في الإثم.... وأتبع الفتح هذا الحديث بحديث آخر قال:

حدثنا معتمر قال: سمعت أبي قال: ذكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ: من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، قال ألا أبشر الناس؟ قال لا إني أخاف أن يتكلموا.. فبين أنه من لقي الأجل الذي قدره الله، ويعني الموت ويحتمل أن يكون البعث، أو رؤية الله تعالي في الآخرة. هكذا قال - فمات علي الإيمان موحداً لا يشرك بالله شيئاً جعله الله في الجنة^(٢).

وروي الإمام البخاري عن قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير. ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير.

(١) فتح الباري ١/ ٣٧٩-٣٨٠.

(٢) فتح الباري ١/ ٣٨١.

حدثنا قتادة - حدثنا أنس عن النبي ﷺ «من إيمان» مكان «من خير» وفيه دليل علي اشتراط النطق بالتوحيد - فمن أقر بالتوحيد وصدق بالإقرار لا بد منه - ولهذا أعاده في كل مرة^(١).

وروي البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالي أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد أسودوا فيلقون في نهر الحيا أو الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية .

قال وهيب حدثنا عمرو الحياة وقال خردل من خير^(٢).

أولاً : الميراث لله وحده

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر].

كل شيء في هذه الدنيا إلي انتهاء ، وكل حي فيها صائر إلي فناء جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، ومع الموت تستوي الأقدام ، ويبقى الله وحده بوجوده وذاته ، ووجهه الكريم الموصوف بالبقاء والدوام الحي الذي لا يموت .

﴿كُلٌّ مِّنْ عَالِيَانِ ﴿٢٤﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَبِّكَ ذُرَّ الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرحمن].

السموات وما فيها ، والأرض وما فيها ، كل ما على الأرض ومن عليها عائد إليه هو صاحبها كلها ، والخالق لها ، والمالك المتصرف فيها - البقاء له وحده والدوام له وحده ، والحكم له وحده .

له الخلق والأمر والسلطان والقهر ، يحكم بأمره في خلقه ماشاء كيف شاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ... من عاش من خلقه فعليه رزقه ومن مات فإليه مصيره وبين يديه سبحانه وتعالى حسابه .

الخلق كلهم يموتون ويورثون ، يرثون ما لم يكن لهم ملكية فيه ثم يموتون فيورثون يأخذونه ، ويتركوه لغيرهم ، فيأخذونه ويتركونه .

(١) (والذرة معناها أقل الأشياء الموزونة) [فتح الباري ١ / ١٩٦].

(٢) كتاب الرقاق عن موسى بن اسماعيل - أخرجه البخاري عن اسماعيل بن مالك ، أخرجه مسلم في الإيمان عن هارون بن وهب بن مالك ... والمثقال كالمقدار لفظاً ومعنى ، ويقع الوزن على قدر أجور العمال ، وما ثبت من أمور الآخرة بالشرع لا دخل للبعقل فيه (فتح الباري ١ / ١٥٢).

أموالنا لذوي الميراث نجتمعها * * * ودورنا لخراب الدهر نبتيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها * * * إلا التي كان قبل الموت يبنها
فإن بناها بخير طاب مسكنه * * * وإن بناها بشر خاب من فيها
قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ [العنكبوت].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ﴿١٨٠﴾ [آل

عمران].

تلك هي الحقيقة التي لا جدال فيها ، فلا تهلك نفسك بنفسك بالبعد عن الله وعن نصرة دين الله ... واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل شكرك لمن لا تقطع نعمه عليك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه ، «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله» (١).

قال أهل العلم والمعرفة : المعصية ميراثها الفقر والمرض وسقوط منزلتك من عيون الناس .. لا تورث إلا الذل والهوان وكثرة الهموم والأحزان ، وحرمان البركة من الرزق والتعرض لغضب الرحمن، بينما تجد في الطاعة لله العز والغني والكرامة وميراث الرضا والقناعة والتذوق لحلاوة الإيمان .

وقالوا : وأهل المعاصي ترى في وجوههم الكآبة ، وعلي وجوههم الغضب فإن جاءهم نعمة من الله كانت لهم استدراجاً ، والطائعون يوقههم الله لشكرها ويبارك لهم في أرزاقهم وأولادهم، فإذا ما أصابتهم بلية كانت كفارة لذنوبهم، وزيادة في درجاتهم ، ومتى اقترنت بالصبر كانت نعمة من الله لهم .

وقالوا : فمن فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ لحكمه ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن أصبح وهو يشكو ضيق المعاش فكأنها يشكو ربه ومن أصبح لأموار الدنيا حزينا فقد أصبح ساخطا على الله ، ومن أحسن سريره أحسن الله علانيته ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن نعيم الدنيا يكفيك الإسلام نعمة، ومن الشغل تكفيك الطاعة شغلا، ومن العبرة يكفيك الموت عبرة ، ومن عمل لأخرته كفاه الله أمر دينه ودنياه .. وقل كما كان رسولنا العظيم ﷺ

(١) من حديث رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت و عليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » (١) .

وتأهب للذي لا بد منه فإن الموت ميقات العباد
أترضي أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء].

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْكُفْرُ وَاللَّيْلُ تُرْجَعُونَ

﴾ [القصص].

الميراث كله يعود إلى الله ، كل ما في الكون من أموال ومنافع وأرض وبحار وشموس وأقمار ، وأنهار وأشجار ، المال والأرض والملك كله لله الوارث الوحيد فكل شيء تحت قهره وقدرته ومشيته .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم].

٢ - التمكين في الأرض والنهي عن الفساد .

لقد أورت الله للناس الأرض ليعمروها ، ويذهبوا في كل أرجائها كما يشاءون لطلب المكاسب والتجارات وتوفير أسباب العيش والتمكين فيها

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف].

سخر لهم الأرض ساكنة بجبالها لا تضطرب ، وسلك لهم فيها السبل ، وأنبع لهم فيها العيون ، ومكنهم من الزرع والغرس فيها ، ويسر لهم الرزق بكل ما أودعه فيها من أسباب ومكونات حتى ينتهي الأمر إليه بالأجل المحدود في علمه سبحانه وتدبيره قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك].

ووضع سبحانه وتعالى للناس مقومات حياتهم بمشيئة الله الذي لا تصلح الدنيا إلا بإتباعه ، الشرائع فيه متفقة مع كل الأماكن والأزمان ، وقدرت بإحكام لسعادة الإنسان .

(١) الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد زاد بعض الرواه « ولا حول ولا قوة إلا بالله » متفق عليه - رياض الصالحين للنووي رقم ١٤٧٨ .

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَذَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ [النمل].

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٤﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الأعلى].

ونبي سبحانه وتعالى عن الفساد في الأرض ، وأمر عباده بدعائه والتضرع إليه ، والتذلل لديه خوفاً مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب قال تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦﴾ [الأعراف].

٣- التوكل على الله والتفويض إليه .

وأمرهم سبحانه وتعالى بالتوكل عليه، والثقة به، والتفويض إليه، والتسليم له ، والشكر على نعمه فهو الحي الدائم والخير بذنوب خلقه لا يخفي عليه شيء منها .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْوَحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَمَسِّحٌ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِذُنُوبِ

عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ ﴿٨٨﴾ [الفرقان].

وبالله يتق المؤمنون ، وما لنا لا نتق وقد هدانا سبحانه وتعالى إلى طريقته المستقيم ، وبصرنا النجاة من عذابه . قال تعالى :

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ [إبراهيم].

وامتن الله على رسوله ﷺ والمؤمنين بالرحمة، وبحسن خلق رسول الله ﷺ واللين الذي في قلبه ﷺ . أمره الله سبحانه أن يتجاوز ويصفح عن أصحابه ، ويدعو لهم بالمغفرة ، ويتشاور معهم فيما يحدث من الأمور، تعليماً لأمته بأن لا يستبد أحد برأيه ، وتطبيعاً لقلوبهم - وإذا صح أمر رسول الله وعزمه عليه فليتوكل على الله بالاستسلام لحكمه والرضي بقضائه قال سبحانه وتعالى :

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُمْ لَوْلَا كُنْتَ قَدْ غَلِطَ الْقَلْبُ لَأَتَقُوا مِن مَّوَلَاكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ

وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾ [آل

عمران].

وقد أمر الله الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومثابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه كما حدث يوم الأحزاب إذ كان الابتلاء والاختبار من الله فأعقبه النصر من

عند الله وصدق الله في وعده ورسوله فيما بشر به من فرج الله وما زاد اجتماع الأحزاب على المؤمنين إلا إيماناً وتسليماً بقضاء الله وأمره قال تعالى :

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

قال السدي : ولما تجهز النبي ﷺ وأصحابه للمسير إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان. قال المنافقون لقد جمع لكم جمعاً كثيراً فآخشوهم وخافوهم واحذروهم . فإنه لا طاقة لكم بهم فما زاد قولهم المؤمنين إلا تصديقاً وبقيناً في دينهم وقالوا يكفيننا الله ونعم المولى لمن وليه وكفله (١).

وكأني أقول لأمة الإسلام إيمانكم بالله أقوى من حشود الدبابات والطائرات فعودوا إلى سلفكم وصحابة رسولكم ﷺ وأعيدوا لأمتكم مجد الأولين قال تعالى :

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن عباس رضي الله عنهما حسبنا الله ونعم الوكيل قالها رسول الله ﷺ وقالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار (٢).

ونحن الآن نقولها من مشاهدة ما نراه من تذبذب المسلمين وقتلهم والاستهزاء بنبينهم ﷺ حيث بلغت السفالة برسمه مادة للكاريكاتور في مجلاتهم وصحفهم ومادة للكتابة عنه والتأليف في رسائلهم وكتبهم لعنهم الله .. كأنه مؤلف من مؤلفاتهم : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٤﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق].

وإذا خضعت قلوب المؤمنين لذكر الله والخوف من الله ، وصدقوا بآيات الله وأيقنوا بها وإنها من عند الله ازدادوا إيماناً بالله واعتادوا على الله لا يرجون غيره ولا يرهون سواه :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

(١) القرطبي ١٦٢٢/٢ .

(٢) البخاري عن أحمد بن يونس عن أبي يحيى عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس (ابن كثير

روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لو أنكم تتوكلون علي الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وتروح بطانا »^(١).

وحقيقة التوكل علي الله في مشاهدة قدرته والتفويض إليه والتسليم لأمره والصبر علي بلائه ، والرضا بقضائه - والمؤمن يستمد عزته من عزة الله وقوته من قوة الله وتحقق كرامته وحرية وأمنه في طاعة الله تبارك وتعالى ، لا إله غيره ولا رب سواه.

٤ - النكران لنعم الله عصيان مرده الخسران والحرمان .

ولم يحرم الله تبارك وتعالى الناس في حياتهم ميراث النعم والخير والبركات أعطاهم بلا حدود ولا قيود من رزق الأرض والسموات ، أعطاهم فوق ذلك الصحة والعافية ، ومنحهم بعظمة قدرته السمع والبصر والفؤاد وذلك للإنسان جوارحه تطيعه فيما أراد ، وكرمه الله أفضل تكريم ، وسخر له الأرض ينتفع بها في باطنها من المعادن والكنوز والخيرات ، وما عليها من الزروع والثمار والبحار والأنهار والأشجار ، وسخر له ما في الأرض جميعاً ، السماء بمائها والأرض بخيراتها والأنعام بمنافعها والبحار بحليها وأسماكها ولؤلؤها ومرجانها، لم يحرم سبحانه الناس من الخير والنعم ،، ولكنها طبيعة الإنسان ألف هذه النعم ولا يشعر بها إلا حين يفقدها ،،

ولو طالب الله الناس بشكر جميع نعمه لعجزوا عن القيام بذلك ، وما تكفي أعمال المرء في حساب الله له إلا برحمة منه سبحانه يضاعف بها الحسنات ويتجاوز بها عن السيئات ، وإلا كم تساوي نعمة واحدة من نعم الله كنعمة البصر ؟ لا يملك أحد أن يوفي حق الشكر لله فيها .. فنعم الله كثيرة لا تحصى ولا تعد ..

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿وَأَنَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْلَمُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٦) [إبراهيم].

قال طلق بن حبيب رحمه الله إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين^(٢).

(١) (رياض الصالحين للنووي) ، ٤/٣٩٨ ابن كثير ومعناها تذهب أول النهار خماسا أي خماسرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطانا أي ممتلئة بالبطون .

(١) (ابن كثير ٢ / ٥٤٠) .

ونعم الله مطلقه فوق كثرتها فلا يحيط بها إدراك أي إنسان - وكفران النعم عصيان بل ومبارزة لله بالعصيان .

وينسى الناس نعم الله عليهم لطول ما ألفوا السهولة والإستقرار واستغلاهم لثربة الأرض ومائها وهوائها وكنوزها الحافلة بالفنائس الكريمة فيفسدون بأموالهم وأفكارهم ما أصلحه الله لهم بحجة التطور وإرتقاء الحضارات .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة] .

وما كان ينبغي للإنسان الذي كرمه الله وأحسن خلقه أن ينسى خالقه ويقابل الكريم بكفران نعمه ونسيان شكرها .

وأن رحمة الله للذين يتبعون أوامر الله ، ويتركون معاصيه ، ويزدجرون بزواجه ، ويلتزمون بمنهجه ، ويسلكون طريقه ، ويعملون بشرعه ، وشريعته .

قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَهَا لِلَّذِينَ يُنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِتَابِعِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف] .

وقد بين الله في كتابه الكريم حال هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وقادوا قومهم إلى جهنم - فقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ

﴿١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنْسِفُ الْقُرَارُ ﴿١٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [إبراهيم] .

ويضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَانَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

[النحل] .

وكانت مكة آمنة مطمئنة ومستقرة ، فقد جعلها الله بلدا حراما من دخله كان آمنا مطمئنا ، فهي بجوار بيت الله الحرام وعمارة مسجده وفي حمايته ، وكان رزق أهلها يأتيهم بسخاء مع القوافل الآمنة والحجيج من البر والبحر استجابة من الله تبارك وتعالى لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [البقرة] .

وكان الأعراب يتخطفون من حول البيت يقتلون بعضهم بعضاً ، وينهبون بعضهم بعضاً ، ويسبون بعضهم بعضاً ... وأهل مكة آمنون . قال تعالى :

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيُحْتَظَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَأَلْبَسُوا عَلِيمًا وَيُنْعَمِ اللَّهُ

بِكُفْرِهِمْ ﴾ [العنكبوت] .

فكان شكرهم بالشرك والجحود والعصيان ،، فلما كذبوا رسول الله ﷺ دعا عليهم وقال : « اللهم أشدد وطأتك علي مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » ، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، وأصابتهم سنة أذهبت كلي شيء لحم حتى أكلوا العليز^(١) . وبدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة . ذلك من سطوته وسراياه وجيوشه التي أمده الله بها^(٢) .

هذا حال القرية التي كفرت بأنعم الله مثلا لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا ،، لقد كانت في أمن من الفتن الخارجية لا ينزل بها ما يوجب الخوف كإغارة الأعداء عليها ، وكانت مطمئنة ساكنة قارة لا يحدث فيها ما يوجب الإنزعاج كالفتن الداخلية بين أهلها ، رزق أهلها مضمون لا يساوره قلق أو أذى وأمنهم موفور لا يساوره شك فقابلوا نعم الله بالكفر والعصيان بدلاً من الشكر والطاعة والعرفان - فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة وعاجلهم سبحانه وتعالى بالعتوبة جزاء ما صنعوه من كفران النعم ، والخروج عن حكمة العقل - وأصابتهم دعاء رسول الله ﷺ .

قال أهل العلم والمعرفة : وإن العبد قد يضيق عليه رزقه بذنوبه وقد تستطع منزلته من القلوب فيصير ثقيلاً مردوداً ، ويستولى الضعف عليه ويستولى أعداؤه عليه . وكما بينا قبل ما تورثه المعصية من الفقر والمرض وسقوط المنزلة من عيون الناس إذ أنها لا تورث إلا الذل والهوان وكثرة الهموم والأحزان ، وحرمان البركة من الرزق والتعرض لغضب الرحمن ، بينما كان العز والغني في الطاعة ، والكرامة في الرضا والقناعة ... ومن المستحيل أن يستوي أهل الطاعة والإيمان بأهل الهوى والعصيان .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل] .

(١) (وهو وبر العبير يخلط بدمه إذا نحروه - ابن كثير ٢ / ٥٨٩) والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٠٦ ، وأحمد في مسنده من حديث أبي هريرة ؓ .

(٢) (ابن كثير ٢ / ٥٨٩) / الطبري ١ / ٤٦٧ .

وأهل سبأ في جنوب اليمن كانت لهم الأرض الخصبة بالوفرة والرخاء ، وكان لهم سد يتحكم في مياه الأمطار رزق السواوات والأرض بعناية الله لهم ، ولم يكن في بلادهم شيء من الهوام «البعوض والذباب والبراغيث والقمل والعقارب والحيتان» لاعتدال الهواء برحمة الله لهم ، ونعمته عليهم .

أمرهم الله أن يستمتعوا بهذا الرزق شاكرين لله - فقال سبحانه وتعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ

بِلَدَّةٍ طَيِّبَةٍ وَزَيْتٍ عَفُورٍ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ] .

ولكنهم لم يشكروا ، ولم يذكروا ، وأعرضوا عن توحيد الله وعبادته ، وعدلوا إلى عبادة

الشمس من دون الله ، كما قال الهدهد لسليمان عليه السلام في قول الله تعالى : ﴿فَمَكَتْ

عَيْرٌ بَعِيرٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿١٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أُسْرَةَ تَمِيمٍ وَأُورِيَّتَ مِنْ كُلِّ مَثْوٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنًا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل] .

حسن لهم إبليس عبادتهم للشمس يسجدون لها فمنعهم بذلك أن يتبعوا دين الله الحق، فهم لا يبتدون له ولا يسلكونه ، والهدهد يتعجب من هؤلاء الذين يسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم الذي يعلم الخفايا ويعلم كل خبيثة في السواوات والأرض ، ويستنكر عليهم شكرهم ومخالفتهم لقضية العقيدة والإيمان التي علمها الهدهد وعرف أن العبادة لا تكون إلا لله الحق وإنما لموعظة بليغة من واعظ متمكن عن الله يقول لنبي الله : ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل] .

سبحان الله في خلقه فقد فهم الهدهد وأدرك مالا يبصر به كثير من العقلاء الذين ميزهم الله بالعقل في خلق البشر .

فلما أعرض أهل سبأ عن التوحيد وأبطرتهم النعم سلبها الله تعالى منهم وحققت عليهم كلمة الله وحرّمهم الله من جنة البساتين والأشجار والثمار بأجناسها وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها وما جمع سبحانه لهم بين مغفرة ذنوبهم ، وطيب بلادهم ، ولم يجمع ذلك لجمع خلقه، وأمنن عليهم بعفوه من عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فاستؤصلوا ^(١) .

قال تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَمَتَّى يُمِزَّ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (١٦) ﴿ [سبأ].

أي لما أعرضت سبأ عن طاعة ربها وصدت عن إتباع رسلها ثقبنا سدوم الذي كان يجبس عنهم السيول فحرب ما أمامه ، وجعلنا لهم مكان بساتينهم من النواكه والثمار بساتين من ثمر الأراك ومن شجر الطرفاء، وقليل من السدر مكافأة لهم علي كفرهم (١) ، وهل يجازي الله إلا الكافر لنعمه ،، الجاحد لفضله ؟ قال سبحانه وتعالى :

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ فِي أَلْدَابٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ].

فلما ظلموا أنفسهم بما عملوا من معاصي الله صيرهم الله أحاديث يضرب بهم المثل فيقال « تفرقوا أيدي سبأ » وقطعهم سبحانه كل مقطع للعظة والدلالة على حق الله على عبده من الشكر والصبر (٢).

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (١١) ﴿ [سبأ].

٥- جذور الفساد في قلوب المكابرين .

.... وللفساد في الأرض جذور عميقة وأصيلة في قلوب المكابرين المعاندين والمتجبرين والمشركين ، والذين أبطرتهم نعم الله فهم بها كافرين وتمتد هذه الجذور إلي بني آدم حينما اعتدى قابيل علي أخيه هايل فزينت له نفسه وحسنت له قتل أخيه فقتله فأصبح من جملة الخاسرين .

قال سبحانه : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْقَاسِيِينَ ﴾ (٣٠) ﴿

[المائدة].

« وهذا نمروذ بن كنعان أول ملك جبار في الأرض خاصم إبراهيم عليه السلام وجادله في ربه حين قال إبراهيم ربي الذي بيده الحياة والموت يحيى من يشاء ويميت من يشاء قال : أنا أفعل ذلك فأحىي وأميت ، قال مجاهد أتى برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر وقال هذا أمته وهذا أحبيته (٣) ، وهذه سفاهة وحماقة من النمروذ ومغالطة كبيرة ، فإن الإحياء

(١) السدر وهو شجر النبق أو السواك ولم يعد لهم منه إلا القليل - وقوله (وائل) شجر يشبه الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم (ابن كثير ٣ / ٥٣٢) .

(٢) (م الطبري ٢ / ٢٢١) .

(٣) م الطبري ١ / ٨٢ .

والإمامة خلق الحياة في المدوم وإخراجه إلى الوجود ، لا العفو عن إنسان وإعدام آخر !
وطلب منه إبراهيم عليه السلام أن يأتي بالشمس من مغربها إن كان يدعي الألوهية فانقطع
وبطلت حجته .

﴿فَمِئْتِ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣٨) ﴿البقرة﴾ .

أو كالذي مر على بيت المقدس بعد تحريب بختنصر لها وقتل أهلها فهي خاوية على
عروشها ليس فيها أحد وقد سقطت سقفوها وجدرانها واشتد خرابها فقال مستكراً
إحياءها بعد أن تحربت (١) .

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْجِبُ هَذَا وَاللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ
مِائَةً عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وأراه الله تعالى في نفسه آية خارقة ، فطعامه لم يتغير منه شيء ولا
شرا به .

﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً
لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ
أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٣٩) ﴿البقرة﴾ .

وقيل في التفسير أنه لما بعثه الله بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينه لينظر بها إلى
صنع الله فيه ، وأن القرية التي كانت خاوية عمرت وتكامل سكانها وتراجع بنو
إسرائيل (٢) .

والملك الغاشم الذي كان يغتصب كل سفينة صحيحة فخرق الخضر سفينة المساكين
الذين لم يكن لهم شيء ليستفعلوا به غيرها وقيل: إنهم أيتام (٣) ، قال تعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ
فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (١٤٠) ﴿الكهف﴾ .

وهذا بلعم بن باعوراء وكان رجلاً في بني إسرائيل أعطاه الله العلم والحكمة فقال إلى
الدنيا وخلد إلى نعيمها ، وباع دينه بعرض من الدنيا قليل وهو مثل لعلماء السوء الذين

(١) م الطبري ١/ ٨٢ - ابن كثير ١/ ٣١٤ .

(٢) ابن كثير ١/ ٣١٤ .

(٣) وقد روى أن هذا الملك هو (هدد بن بدد) وفي رواية للبخاري انه مذكور في التوراة وهو من الملوك
المنصوص عليهم في التوراة والله اعلم (بن كثير ٣/ ٩٨) .

يسايرون أهواء الحاكمين تملقا وتزلقا، فما أسوأ مصيرهم ، وما أشنع حالهم حين صورهم القرآن بصورة الكلب اللاهث .. لقد آتاه الله آياته فتركها وقيل أيضا أنه « أمية بن أبي الصلت » والله أعلم (١).

قال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَخْ مِنْهَا فٱتَّبَعَهُ الشَّيْطٰنُ فَكَانَ مِنَ الضَّٰلِئِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكَلِّمُهُ ءَخٰلِدًا ءِلىَ ٱلْأَرْضِ وَأَنبَعْهُنَّ مُنۢبَعًا كَمَا تُنۢبِئُ ٱلۢكَلْبُ ۚ إِن تَحۢمِلُ عَلَيْهِ يَلۢهَثُ أَوْ تَتَرۢكُهُ يَلۢهَثُ ذَٰلِكَ مِثۡلُ ٱلۢقَرۡوِرِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ بِءَايٰتِنَا فَاَقۡصِرْ ٱلۢقَصۡصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ [الأعراف].

وهؤلاء بنو إسرائيل لما أفسدوا في الأرض وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء واستحلوا المحارم ، وتكبروا عن طاعة الله سلب الله عليهم أروما ذوى قوة وبطش في الحروب فأغاروا عليهم وقتلوا واتخذوا من جلودهم نعلا ومن شعارهم جبالا كما سنوضحه بالمزيد مع نبهم موسى عليه السلام في فساد بني إسرائيل الذين أخذ الله منهم العهد المؤكدة على الوفاء لله والطاعة والإيمان برسله ولكنهم نقضوا كل العهود والمواثيق ، وهذا لما هم عليه من الغدر والخيانة ونقض العهود والتبادي في الغي والضلال فاستحقوا الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

﴿ وَذَٰلِكَ ٱلۢمَثَلُ نَضْرِبُهُۥ لِلنَّاسِ وَمَا يَعۢقِلُهَا ءِلاَ ٱلۢعٰلِمُونَ ۝١٧٦﴾ [العنكبوت].

٦- بشؤم معاصي العباد ظهر الفساد في البلاد .

... وبشؤم معاصي العباد ظهر الفساد بالعصيان لله والإفساد ، فصلاح الأرض والسماء لا يكون إلا بطاعة الله ، وإذا ما ظهر الفساد انقطع المطر وأعقبه القحط والنقص في الزروع والثمار بسبب معاصي العباد ، وكان الجذب في الزراعات والثمرات ونزول الآفات بالناس والدواب ، وكثره الحرق والغرق ومحو البركة من كل شيء قال تعالى :

﴿ وَقَطَعۡنَا فِي ٱلۢأَرْضِ أَمَا مِنۢهُمُ ٱلۢصَّٰلِحُونَ ۚ وَمِنۢهُمۡ دُونِ ذَٰلِكَ وَيَلۢوۡنُهُمۡ بِٱلۢحَسَنَاتِ ۚ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۢجِعُونَ ۝١٧٨﴾ فخلّف من بعدهم خلّف ورثوا الكلب يأخذون عرض هذا الأذن ويقولون سيغفر لنا﴾ [الأعراف].

ليتألم الناس لما يصيبهم لعلهم يرجعون عن الفساد والظلم وقطع السبيل ويتوبون إلى الله ويرجعون إليه وينيبون إلى الحق وتركوا المعصية.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿١١﴾ [الروم].

ولينظروا إلى مساكن الذين كفروا من قبلهم وقد أهلكتهم الله بكفرهم وتكذيبهم ليجعلهم عبرة لمن بعدهم وكان أكثرهم مشركين بالله قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢﴾ [الروم].

وأخبرنا سبحانه وتعالى أن كل ما ينزل بالناس من المصائب والآلام والمكارة والانتقام بالنفس والأهل والولد والعاهات بالمرزوعات والمواشي فهو بسبب المعاصي ولكنه سبحانه يعفو عن السيئات قال سبحانه:

قال تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾ [الشورى].

﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى الْأَرْضِ وَكُنَ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبَدَ اللَّهُ كَأَن بَعَادِهِ بَصِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ [فاطر].

وقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكبر^(١).

فأما الذي ينزل بالطائعين من المحن والبلايا فإنها تكفير عن الخطايا ، ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله تعالى عنه به من سيئاته .

عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها »^(٢).

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « من يرد الله به خيرا يصب منه » .

وروى عنه ﷺ قال : « ما يصب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها »^(٣).

(١) (عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن البصري) (ابن كثير ٤ / ١١٦) .

(٢) (ابن كثير ٤ / ١١٦) (رواه أحمد) .

(٣) (فقه السنة ص ٤٨٧) (ورواه البخاري ومسلم) .

وكم أهلك الله من قرية طغت وكفرت بنعمة الله فيما أنعم الله به عليهم من الأرزاق ، واندثرت ديارهم وحل بها الهلاك ، فلا تري فيها إلا مساكن أهلها الخاوية الخالية لم يسكنها إلا المسافرون أو من مر بالطريق يوماً أو بعض يوم وكان هلاكها بسبب البطر والطغيان بالنعمة وعدم الشكر عليها .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فَنَلَكْ مَسْكَنُهُمْ لَوْ تَشْكُرُونَ بَعْدَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٥٨) ﴿ [القصص].

أي رجعت خرابا ليس فيها أحد ،، وكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار (١) .
عن ابن مسعود ؓ أنه سمع كعباً يقول لعمر ، إن سليمان ؑ قال للهامة « يعني البومة » مالك لا تأكلين الزرع ؟ قالت لأنه أخرج آدم من الجنة بسببه ،، قال فما لك لا تشربين الماء؟ قالت لأن الله تعالى أغرق قوم نوح به ،، قال فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب؟ قالت لأنه ميراث الله تعالى ثم تلا (٢) : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٥٨) ﴿ [القصص].

وقضت سنة الله تعالى التي كتبها علي نفسه رحمة بعباده وعدلا منه سبحانه أنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا لِيُنذِرَ لَهَا آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (٥٩) ﴿ [القصص].

وكل قرية كذبت رسلها خربت منازلها وتعطلت حواضرها ، فلم تمنع حصونها وارتفاعها وحصانتها عن حلول بأس الله بهم .

ألم ينظر المكذبون مصارع أمثالهم فيعتبروا بها ، وتكون لهم القلوب التي يعقلون بها حجج الله على خلقه وقدرته ،، أو تكون لهم آذان تصغي لسماع الحق ، وتميز بينه وبين الباطل - إن الأبصار لا تعمى عن الرؤية ، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور عن إِبصار الحق ومعرفته .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٦١) ﴿ [الحج].

(١) والبطر هو الطغيان بالنعمة ،، وكنا الوارثين لما خلفوا بعد هلاكهم (ابن كثير ٣/٣٩٦) .

(٢) ذكره ابن أبي حاتم (ابن كثير ٣/٣٩٦) .

..... ولو أن الناس آمنوا بالله ورسله إيماناً صادقاً ، فاتقوا الله وأطاعوه واتبعوا هدي رسله عليهم الصلاة والسلام ، وابتعدوا عن كل المحرمات لفتح الله عليهم القطر من السماء، والنبات في الأرض، ولكنهم كذبوا فعاقبهم الله على ما كسبوا من المآثم والمحارم : قال سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف].

...وهؤلاء الذين يخالفون أوامر الله ، ويتجرؤون على زواجه ، ويكفرون بنعمه - هل يأمنون عذاب الله ونكاله ؟

قال سبحانه وتعالى : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْأَقْوَمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف].

لقد ذهب أهل هذه القرى وورثها غيرهم بعد أن هلكوا بذنوبهم فما الذي يؤمنهم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم ؟ أولم يتبين للذين استخلفهم الله في الأرض من بعد إهلاك الآخرين قبلهم أن يختم الله على قلوبهم ويفعل بهم ما فعل بمن قبلهم أفلا يتعظون ؟ أفلا يذكرون ؟؟

قال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو شَاءَ أَصَبْتَهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف].

لقد زين لهم الشيطان أعمالهم من الشرك والمعاصي ومن الاستكبار والعداوة وحسن لهم سوء أعمالهم وأعرضوا وتناسوا ففتح الله عليهم أبواب الرزق والسعة في المعيشة ، ورغد العيش وأعطاهم الصحة في الأجسام ووفر لهم كل الأسباب استدراجاً منه سبحانه وتعالى وإملاء لهم حتى إذا فرحوا بذلك النعيم أخذهم الله بالعذاب فجأة من حيث لا يشعرون ، فإذا هم هالكون .

قال جل في علاه : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٢١﴾ فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام].

٧- ميراث الجهل والظلام في الأمم قبل الإسلام .

... وإنه من نظر وتأمل في تاريخ القرون الماضية قبل الإسلام - قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، وجد أن ميراث كل أمة من سابقتها ميراثاً يظلمه السواد، ويكتم عليه الظلام - ميراث في الجهل والضياع والظلم والخيانة والفساد والجبروت والطغيان - شرك بلا قيود وكفر بلا حدود - واستكبار وعناد ...

أصنام تعبد، وأوثان وأنداد وآلهة أخرى يحبونهم كحب الله ... ! اختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبث، واختلت الموازين وفسدت العقائد فإذا هو الفساد في الأرض أصاب العباد في الأخلاق والأرزاق، وهلكت البلاد بمعاصي العباد .

وإنه لمن لطف الله تعالى بعباده، ورحمته بهم على مر القرون والأزمنة أنه كلما كان يستشري الظلم بينهم، ويعم الفساد مجتمعاتهم يبعث الله تعالى لهم الأنبياء والرسل - رسول بعد رسول للهداية والإصلاح حتى يعود الناس إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي توحيد الله وعبادته وإقامة ميزان الحق والعدل في الأرض : ولكن

﴿ يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ نَرَوْا كَرَاهِلَكُمْ قَبْلَهُمْ مِمَّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يس] .

يسخرون ويستكبرون، وينكرون البعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله، وإذا ذكروا بحجج الله ليعتبروا ويتفكروا فإنهم لا يتذكرون قال سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِرُوا لِالْبُذُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا نَرَاهُ إِتْسَاسُخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ لَوْ دَاوِسْنَا وَكُنَّا نُرَايَا وَعِظْلَمَا أَوْ نَا لَتَبِعُونَا ﴿١٦﴾ أَوْ نَا نَاؤُنَا أَلَاؤُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الصافات] .

يستعدون ذلك ويكذبون فقال سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الصافات] .

وجب عليهم العذاب بما قدموا من المعاصي والذنوب، ومن أغواهم من الجن يوم القيامة مشتركون في عذاب النار كما اشتركوا في معصية الله، والاستكبار والتعظيم عن التوحيد بالله يا ويلهم من هول ما يعاينون .

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الصافات] .

وحقت كلمة العذاب على الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ، كذلك حقت على المكذبين. هؤلاء الذين كذبوا رسول الله ﷺ.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (٦) ﴿[غافر].
والذين يستكبرون عن عبادة الله وتوحيده وإفراده بالالهوية سيدخلون جهنم صاغرين قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠) ﴿[غافر].

وكلما فشت الذنوب والمعاصي في أمة من الأمم انتهت بها إلى ذلك المصير.
قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٧٧) ﴿[الإسراء].

٨- الإيمان هو الحقيقة التي لا تتبدل في كل الرسالات .

... الحقيقة الواحدة التي لا تتبدل علي مدار الزمان وتعدد الرسالات هي حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعا عليهم وعلي نبينا محمد الصلاة والسلام .
وعلي كلمة التوحيد قامت دعوتهم لإفراد الإلهية والربوبية لله ، وإخلاص العبادة والعبودية لله - فهو سبحانه وتعالى المتصرف في أمور الخلق ، وله الأمر من قبل ومن بعد - كلمة واحدة قالها نوح عليه السلام .

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٨١) ﴿[الأعراف].
وهي ذاتها وبعبئها الكلمة التي قالها كل من جاء بعده من المرسلين ، وبعدها يعالج كل رسول أمراض قومه التي سكنت في قلوبهم ، وسلطت على قلوبهم ، وتحمّلوا الأذى والمشقة بالصبر والإيمان في سبيل ذلك .

فكانت أقوام نوح وهود وصالح وإبراهيم عليهم السلام أقوام شرك ووثنية فأهتم أنبياءهم بالقضاء علي الشرك .

... وقوم شعيب انتشر الغش بينهم وتقص الكيل والوزن ، ولوط عليه السلام افتتن قومه باللواط وكان همه القضاء علي الفاحشة ، وموسى عليه السلام يعمل علي إنجاء الشعب الإسرائيلي من الطغاة الظالمين فرعون وملئه .

... قال نوح لقومه: ﴿قَالَ بِتَقْوِي أَرْهَبْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي وَءَانْتُمْ مِّنْ عِنْدِي فَعَبَيْتْ عَلَيْكُمْ أَذَلُّكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ (٨٨) ﴿[هود].

وكذبوه وأصابهم الغرق إلا من آمن .

... وقال صالح لقوم ثمود : ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَاهُ بِشَرِّ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْصُرِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴾ ﴿١٣٦﴾ [هود] .
فكذبوه فأخذتهم الصيحة .

... وقال شعيب لأصحاب مدين قال : ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَاهُ بِشَرِّ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَ لَكُمْ مِنْهُ إِلَّا أَنْفُسَكُمْ إِنَّكُمْ عَنْهُ بِأَبْصَارٍ وَإِنِّي لَأَصْلَحَ مَا أَتَيْتُكُمْ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ﴿٨٨﴾ [هود] .
فكذبوه فأصابتهم الرجفة وعذاب الظلة ، كما كذب قوم عاد هودا فأهلكوا بالريح العقيم .

وإبراهيم عليه السلام جادله قومه في توحيد الله ، قال : أتجادلونني في توحيد لربي وحدانية الحق ، ولا أُرهب آهتكم أن تتألني بسوء أو مكروه إلا ما شاء ربي وسع علم ربي كل شيء .
﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجِرُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ [الأنعام] .
فنصره الله علي قومه وأيده بالمعجزات وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان لعنه الله .
... وتلك الأقوام في أزمانها وقرونها كما قصها كتاب الله تعالى سنذكرها إن شاء الله بشيء من التفصيل في هذا الكتاب .

يقول ابن كثير^(١) : يخبر الله عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتنوع في عذابهم وأخذهم بالانتقام منهم - يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ [العنكبوت] .

ثانياً الوحدانية لله

١- الوحدانية لله دعوة كل رسل الله .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

فكانت الوجدانية لله أول دعوة الرسل لأقوامهم، ومفتاح دعوتهم وأول منازل الطريق بإخلاص العبودية والعبادة لله وحده، والكفر بالطاغوت وهو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو مطاع غير الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء]. فلم يزل سبحانه وتعالى يرسل إلى الناس الرسل منذ حدث الشرك في بني آدم من قوم نوح إذ صنع الناس تماثيل لخمسة رجال صالحين بعد موتهم لتكريم ذكراهم وتوارثهم الأحفاد جيلاً بعد جيل، وقد تعامل معهم إبليس اللعين وأوهم الوارثين لهذه التماثيل أنها آلهة تجلب الخير فعبدوها من دون الله.

ذكر الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال عن آلهتهم «ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا» قال هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد حتى هلك أولئك ونسي العلم (عبدت) (١).
٢- أول الشرك في الأرض.

... فكان أول شرك وقع علي الأرض هو شرك قوم نوح (٢)، وكان سببه في البداية الغلو في الصالحين.. فلما عبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر بعث الله نوحاً عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام ليرد الناس إلى التوحيد بعد أن ضلوا واتخذوا لهم أصناماً يعبدونها من دون الله.
فأمره الله سبحانه وتعالى أن ينذرهم بأس الله إن لم يتوبوا إليه ويتركوا محارمه، ويطيعون ما أمر به، وما نهى عنه. فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [نوح].

ولم يجد نوح عليه السلام من دعوته لقومه إلا الإعراض والضلال والعناد والاستكبار بجهل سادة القوم وكبرائهم من الكافرين وإنكارهم للحق.

(١) (القرطبي ١٠/٧٠٣٤) ورواه ابن جريج (ابن كثير ٤/٤٢٦).

(٢) العدد الثاني من عقائد الإسلام للدكتور/ يوسف القرضاوي (كتاب حقيقة التوحيد ص ٦٤).

ولبت في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما لم تثمر غير العدد القليل الذي آمن لدعوته
وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٠﴾ [هود].

أما الكثرة العظمى بقيت على حالها ظالمة بكفرها جاحدة ومعرضة عن أمر ربها ،
وامتلأت الأرض كفرا ،، وتوجه نوح إلى ربه يشكو إليه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا
﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرًا فِي أَذَانِهِمْ
وَاسْتَفْسَحُوا يَابِئِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ [نوح].

وازداد القوم إصرارا على الكفر فتوجه نوح إلى ربه يدعو عليهم .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿١٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا
إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿١٧﴾ [نوح].

واستنفذ نوح ﷺ كل الأسباب :

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ [القمر].

واستجاب الله الدعاء، وأمره بصنع السفينة حتى جاء أمر الله بطوفان الأمطار المتتابعة.
﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّتَمِيمٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾
وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُومِرٍ ﴿١٣﴾ [القمر].

وحدث الطوفان وأغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة وهلك القوم
بذنوبهم وإصرارهم على كفرهم حتى ولد نوح قال : ﴿ قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَى الْجِبَلِ يَتْعَصَمُونَ
مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
الْمُغْرَقِينَ ﴿١٢﴾ [هود].

قال محمد ابن اسحق : فلما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض
فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض وأبواب السماء .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْأَمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَنُضِيَ الْأَمْرُ وَالْأَمْرُ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ [هود].

فجعل الماء ينقص ويغيض ، وكان استواء الفلك على الجودي من أرض الجزيرة عبرة
وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة « والجودي جبل بالموصل وقال بعضهم هو الطور » .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَمَّيْتَهُمْ ثُمَّ
بَسَّهْمُ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ [هود].

وتلك قصة من أنباء الغيب أوحاها الله إلى رسوله ﷺ كأنه شاهدها ، وأخبار الغيوب السالفة عطينا أن نؤمن بها ، ونعتبر لما جاء فيها من نعمة الله وعذابه على كل من عصاه وتحدي أوامره واستهتان برسله وأشرك بعبادته أحدا غيره .

٣- وفي عاد قوم هود ميراث جديد لعبادة الأصنام

... قال تعالى : ﴿ قُرْآنًا نَّامِيًا بَعْدَهُمْ قُرْآنًا آخِرِينَ ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٣٢﴾ [المؤمنون] .

وعاد أول الأمم التي عبدت الأصنام بعد الطوفان ، وكانت تسكن الأحقاف جنوب الجزيرة بالغرب من حضرموت ، وكانت منازلهم على المرتفعات على البحر بأرض يقال لها الشجر - قيل أنهم كانوا أحياء باليمن ، وقيل إنهم كانوا بالبادية وفيها جبال شواحق - والله أعلم ،، وكانوا قوما أقوياء وأغنياء مكنهم الله من القوة والمال والعلم والمتاع وأنهم من الأسباع والأبصار والأفئدة ما لم يمكن غيرهم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَحَمَلْنَا لَهُمْ سَمًّا وَأَنْصُرًا وَأَفْنَدَهُ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعُدْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣٦) [الأحقاف] .

لقد استكبروا وبغوا وعتوا وعصوا واعتقدوا أنهم يمتنعون بقوتهم من بأس الله فبارزوا الجبار بالعداوة ووجدوا آياته وعصوا رسله .

﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ جَدِّدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود] .

اتبعوا رؤساءهم وجابرتهم المتكبرون الطاغون الذين لا يقبلون الحق ولا يذعنون له - كفروا بنعمة الله فابعدوا عن رحمة الله .

قال تعالى : ﴿ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (١٠) [هود] .

قال لهم نبيهم هود عليه السلام : آمنوا بالله ولا تعرضوا فاستكبروا على هود ومن آمن معه واغتروا بأجسامهم وقوتهم وأصروا على الكفر بعبادتهم الأصنام والأوثان «يا قوم اعبدوا الله» .

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِشَارِكِيَّ إِلَهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

ولم تغن عنهم آهنتهم التي اتخذوها كما يزعمون تقربا إلى الله ، ولم تنفعهم الخواص التي تمتعوا بها ... فقد عطلوها ببحرودهم لآيات الله .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فُصِّلَتْ] .
وكانت الصاعقة التي أرسلها الله عليهم ريحا باردة شديدة البرد والصوت شديدة الهبوب .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَزِيغُ النَّاسِ كَانْتُمُ أَعْيَارُ نَحْلِ شَفْعِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القمر] .

تقول الروايات أن القوم أصابهم حر شديد واحتبس عنهم المطر، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ، ثم ساق إليهم سحابة ففرحوا بها فرحا شديدا، وخرجوا يستقبلونها في الأودية وهم يحسون فيها الماء .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أُوذِيْنِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا بَرِيءَ إِلَّا مَسْكَنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] .

حملتهم الريح وحملت مواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض .
يقول ابن عباس رضي الله عنهما : فلما عرفوا أنه عذاب وليس المطر دخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصر عنهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما وهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر^(١) ، وكذلك مصرع الظالمين .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فُصِّلَتْ] .

... وتلك هي الأخرى قصة من أنباء الغيب أوحاها الله لرسوله ﷺ ، وعلينا أن نؤمن بها ، ونعتبر لما جاء فيها من نكال الله وعقابه لمن يتحدى أوامر الله ، أو يشرك به أحدا ، أو يستهين برسله الكرام .

٤ - وخلفت ثمود عادا في القوة والتمكين :

﴿قُرْآنًا مِّنْ بَعْدِهِمْ قَرَأَ آخَرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون].

وجيلا بعد جيل ... وميراث الشرك والكفر لا يتبدل ولا يتغير ، والمكذبون بالرسل لا يتغيرون ، ولا عظة ولا اعتبار من نكال الله وغضبه على قوم عاد قبلهم ... لقد خلفت ثمود عادا في القوة والتمكين في جزيرة العرب .

... قوم عاد كانوا في الجنوب وقوم ثمود بمدائن الحجر في شمال الجزيرة بين تبوك والمدينة ، وكانت مساكنهم مشهورة بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله .

﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْخَضُونَ مِنْ سُھُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يُوْتًا فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف].

وبقيت مساكنهم معروفة للعرب يمرون عليها في رحلتي الشتاء والصيف .

... بعث الله منهم صالحا عليه السلام يأمرهم بعبادة الله وحده .

﴿وَلَمَّا ثَمُوْدُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَفِرُّوهُ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿١٥﴾﴾ [هود] .

ولكن القوم كانوا على جهل وعناد فاستهزءوا به ساخرين .

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٦﴾﴾ [هود] .

وكذبوه فقالوا : ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿١٧﴾﴾ [القمر] .

وسألوا صالحا أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم ناقة عشراء تمخض من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ، وهي صخرة مفردة في ناحية الحجر يقال لها (الكاتبة) ... وأخذ صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلي سؤالهم ... فلما قام صالح إلى صلاته دعا الله فتحركت تلك الصخرة ، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنيها بين جنيها ، عند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره بعد أن ظهرت حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام . أما ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب الأوثان صد الناس عن الإيذان .

وكانت الناقة تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما .

قال تعالى : ﴿وَيَنْبَغِيهِمْ أَنْ أَلْمَأَةَ قَسَمَةً بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبَةٍ تُخَضَّرُ﴾ ﴿١٨﴾ [القمر] .
يوم لهم ويوم للناقة .

.... قيل أن قدار بن سالف وكان أشقى قومه عقر الناقة ورميت بسهم في عضلة ساقها ، وبكى صالح النبي لما رأى الناقة قد قتلت ، بل وعزموا على قتله .
﴿وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَأَسْتَجَبُوا أَعْمَى عَلَى الْهَدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [فُضِّلَتْ] .

وجاءت صيحة السماء .. بعثها الله عليهم رجفة وذلا وهوانا .. نكالا بما كانوا يكسبون من التكذيب والجحود والاستكبار عن الإذعان للحق والتسليم له . أرسلها الله عليهم فبادوا عن آخرهم ، ولم يبق منهم باقية ، ولم يفلت منهم صغير ولا كبير .. وخذلوا وهمدوا كما يهدم بيبس الزرع والنبات ^(١) .

﴿وَأَنَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحَظِيرِ﴾ ﴿٢١﴾ [القمر] .

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ ﴿٢٧﴾ [هود] .

٥- إبراهيم عليه السلام وأصنام قومه :

... وقرونا بعد قرون مضت وانتهت .. أمم وأجيال لم تجد من الميراث إلا الظلم والطغيان الذي ساد وزاد بين العباد - جيلا بعد جيل لا بديل ولا تبديل .. إهانة وتكذيب واستكبار وعناد .. وابن آدم مهان وذليل !!

وتأتي الرسالة الكبرى لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده ، ليدفع الله عنهم الشر في الدنيا والآخرة ، وأن يشكروا له على ما أنعم به عليهم ... فإليه يرجع الأمر كله ، وإليه يعود الخلق كله للحساب والجزاء واليه سبحانه المرجع والمصير .

﴿وَأَنذَرْتَهُمْ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَأَعْمِلُكُمْ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [العنكبوت] .

قال إبراهيم لقومه أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع وهي مخلوقة وليست آلهة كما يزعمون ، فهم ينحتونها أصناما ، ويعبدونها أوثانا ، وهم الصانعون لها .. وكان

القوم بأرض الجزيرة والشام يعبدون الكواكب السبعة في أرض الكنعانيين وبلاد بيت المقدس، وكان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكلاً لكوكب منها - وكانت الأصنام في كل مكان من الأرض، من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد، وأوثان من الجص والحجارة .

... أنكر إبراهيم علي أبيه وقومه عبادة الأصنام والأوثان والأنداد .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٧﴾ أَيْفَكَ ءِالِهَةُ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٨﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات] .

وأهل بابل كانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم إبراهيم ﷺ في عبادتها وكسرها عليهم وأهانهم ، وبين بطلانها .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَلْوِينٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [العنكبوت] .

ثم أنكر على أبيه - وكان ممن يعبد الأصنام وأحق الناس بإخلاص النصيحة .
و ضرب القرآن الكريم لنا مثلاً من أروع الأمثلة لبر الوالدين ومصاحبتهما بالمعروف رغم كفرهما ذلك حين قص علينا دعوة إبراهيم ﷺ أباه إلى الإيثار بالله - ونبيه إياه عن عبادة الأصنام .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم] .

وكلها في أسلوب الخطاب يا أبت : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٩٧﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٩٨﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٩٩﴾ ﴾ [مريم] .

وأبوه أصم أذنيه ، ولم يكتف بالإعراض عن ابنه بل انتهره وهدده بالرجم والطرده والإبعاد .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ ءِالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمَتِكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [مريم] .

... ولم يقابل الابن البار الإساءة بالإساءة والهجران بالهجران .

﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴿١٠١﴾ وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِّن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [مريم] .

.... وهناك مشاهد أخرى من القرآن الكريم امتدح الله فيها بعض رسله علي برهم ... تلك أخلاق الأنبياء .

فقال عن يحيى : ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (١١) [مريم].

وقال عن عيسى : ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِ جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٣٢) [مريم].

وقال عن يوسف : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقال إسماعيل عليه السلام : ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٢)

[الصفافات].

وتمضي مسيرة الجهاد لمحطم الأصنام إبراهيم الخليل عليه السلام الذي انتهت دعوته لقومه بليمان فرد واحد غير امرأته .. هو لوط ابن أخيه عليه السلام والذي بعث في قومه الذين يأتون الذكور من دون النساء ، وسنأتي إلي بيانه إذا قدر الله وشاء . ولوط عليه السلام الذي آمن برسالة عمه هاجر معه من أرض الكلدانيين في العراق إلي ما وراء الأردن حيث استقر بها المقام ... وكل من كان على وجه الأرض بعد ذلك كفار....

وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به الشرور وأبطل الضلال ، إذ آتاه الله رشده في صغره وابتعثه رسولاً واتخذة خليلاً في كبره .

قال سبحانه وتعالى :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) [الأنبياء].

« أي كان أهلاً لذلك » هذا الرشد الذي أوتيته من صغره - الإنكار على قومه عبادة

الأصنام من دون الله : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٢) [الأنبياء].

« أي تعتكفون علي عبادتها » : ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (٥٣) [الأنبياء].

فلم يكن لهم حجة سوي صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد

ولهذا قال عليه السلام : ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ آبَائِكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٥٤) [الأنبياء].

وأعلمهم بمن هو أحق بالعبادة .

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٥)

[الأنبياء].

« أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه » .

وتمضي بنا الآيات حتى جعل إبراهيم آلهتهم خطأ وهو يقول :

﴿ أَفِي لَكُمْ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ فَعَالِينَ ﴿١٨﴾ [الأنبياء].

قال ابن عمرو ومجاهد وابن جريح أن قائل هذه المقالة رجل من الأكراد من أعراب فارس أي من باديتها اسمه هيرز « فحسب الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وقيل بل قالها ملكهم نمرود »^(١).

وجاء في الخبر أن نمرود بني صرحاً طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون ذراعاً . قال بن اسحق : وجمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت حتي أن كان الطائر ليمر بجناياتها فيحترق من شدة وهجها ،، ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولاً ، ويقال : أن إبليس صنع لهم المنجنيق ... يومئذ ضجت السماوات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين «ضجة واحدة» ربنا «إبراهيم» .. ليس في الأرض أحد يعبدك غيره يحترق فيك فأذن لنا في نصرته فقال الله تعالي « إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره لقد أذنت له في ذلك ، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه »^(٢).

فلما أرادوا اللقاء في النار أتاه خزان الماء - وهو في الهواء - فقالوا : يا إبراهيم إن أردت أخدمنا النار بالماء ، فقال لا حاجة لي إليكم ، وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النار . فقال : لا . ثم رفع رأسه إلي السماء فقال : اللهم أنت الواحد في السماء ، وأنا الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري «حسبي الله ونعم الوكيل» .

روي أبي كعب ؓ عن النبي ﷺ أن إبراهيم حين قيده ليلقوه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك - قال ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي^(٣) . فقال الله تعالي وهو أصدق القائلين .

(١) ابن كثير ٣/١٨٤ - القرطبي ٦/٤٤٨١ .

(٢) القرطبي ٦/٤٤٨١ .

(٣) فلا من القرطبي ٦/٤٤٨١ ومطابقة للوارد بابن كثير برواية الحافظ أبي يعلى عن اسحاق عن أبي

جعفر مرفوعة عن أبو هريرة .

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]

أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء].

الأخسرين في أعمالهم ، ورددنا مكروهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : سلط الله عليهم أضعف خلقه « البعوض » فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح - أكلت لحومهم ، وشربت دماءهم ، ووقعت واحدة في منخره فلم تنزل تأكل إلى أن وصلت دماغه - وكان أكرم الناس عليه الذي يضرب رأسه بمرزبة من حديد - قال فأقام هذا نحواً من أربعائة سنة ^(١) .

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء].

قيل أن الأرض المباركة أرض الشام لأنها معادن الأنبياء ، وقال ابن عباس هي مكة ، وقيل بيت المقدس ، وقيل الأرض المباركة مصر - والله أعلم .

لقد كان إبراهيم عليه السلام يعدل أمة كاملة ، وإماما يقتدي به .. دائم الخشوع والطاعة لله الذي جمع له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته - برأه الله من المشركين ومن اليهودية ومن النصرانية .

قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٣١]
 شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٢﴾ وَآيَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٣﴾ [النحل].

وأوحى الله لمي نبينا محمد عليه السلام بإتباع ملته والسعي على نهجه فقال :

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل].
فلما نجاه الله من النار هاجر مواطن الكفار ، وهجر قومه الأشرار ، عوضه الله عن قومه وأهله ذرية تمضي فيها رسالة الله ، فكل الأنبياء والدعوات بعده كانت في ذريته عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَابَ وَآيَاتِنَا أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٧] [العنكبوت].

..... تلك كلها إشارات إلى ماضي الزمان نرى فيها ميراث القرون والأمم من الشرك وعبادة الأوثان ، والبغي والعدوان ، والظلم والطغيان ، وتكذيبهم للرسل الذين جاءوا لتحرير بني الإنسان من عبودية البشر للبشر - وإخلاص العبادة للواحد الديان .

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا عَجِبَ عَلَيْنَا مِنْ آمْرِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَشَيْخَانٌ وَأَهْلُهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُمْ كَأَنَّهُمْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت].

البشرى التي جاءت بها الرسل إبراهيم عليه السلام كانت الولد الصالح .

﴿وَأَمْرَاتُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَفَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٦٣﴾﴾ قَالَتْ يَتُورَلَيْهِ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٤﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَّتْهُ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٦٥﴾﴾ [هود].

فلما ولد لإبراهيم إسماعيل عليه السلام من هاجر تمت سارة أن يكون لها ابن - وأبست لكبر سنها فبشرت بولد يكون نبيا ويلد نبيا فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها ^(١) .
وقد كانت البركات في إبراهيم وعقبه من ولديه - اسحاق وأبنائه أنبياء بني إسرائيل - وإسماعيل عليه السلام .

لقد كانت امرأته عقيبا وإبراهيم شيخ كبير ولكنها قدرة الله العلي القدير .

﴿وَيَسِّرُوهُ يَتْلُمِمْ عَلَيْهِ ﴿٦٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٦٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٧٠﴾﴾ [الذاريات].

٦- ميراث قوم لوط

..... وكان لوط عليه السلام قد بدأ دعوته مع قومه بمثل ما بدأ به نوح وهود وصالح عليهم السلام - وكانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن ، وقد انحرفوا عن الفطرة بالشذوذ الجنسي وإتساء الذكور وترك النساء ، وكانوا قطاع طريق يأخذون الناس من الطرق فيسلبونهم أموالهم ويقضون معهم الفاحشة .

ذكر الثعلبي - قال معاوية ^(١) - قال النبي ﷺ : « يجلس قوم لوط في مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى فإذا مر بهم عابر قدفوه فأبهم أصاب كان أولى به - يذهب به إلى الفاحشة - ذلك قول الله تعالى :

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وإضافة إلى اللواط قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة فكانوا يتظالمون بينهم ، ويشتم بعضهم بعضا ، ويلبسون المصبغات ، ويتناقرون بالديكة ،

(١) (القرطبي ٤ / ٣٣٨٧).

(٢) نقلا من تفسير القرطبي ٧ / ٥٢٣٠

ويتناطحون بالكباش ، ويطرقون أصابعهم بالحناء ، ويتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله ، وهم أول من ظهر علي أيديهم اللوطية^(١) وكان لوط الطيب قد وفد عليهم مع عمه إبراهيم الطيب بعد أن آمن بدعوته وهاجر معه إلى ما وراء الأردن ، وبعد أن أعتزل قومه وأباه ونصره الله عليهم وحطم أصنامهم - وبعدها عاش لوط في إحدى القبائل علي ضفاف البحر الميت وأرسله الله إلى قومه .

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتُونَ الفجيسة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العالَمِينَ ﴿١٨﴾ أَيُّكُمْ لَأنتُونَ الرِّجَالُ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿العنكبوت﴾ .

دعاهم إلى ترك هذا العمل الفاضح واستنكر ما هم فيه بعدوانهم على الفطرة .

﴿ أَنتَؤُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العالَمِينَ ﴿١٧﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِجَالِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المُخْرَجِينَ ﴿١٩﴾ ﴿الشعراء﴾ .

وكانت امرأته عجوز سوء تقر القوم على فعلتهم المنكرة وتعينهم عليها - لذلك عندما توجه لوط إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله قال: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴿الشعراء﴾ .

واستجاب له الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَجَنَنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الغَيْرِينَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الآخِرِينَ ﴿١٩﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ ﴿الشعراء﴾ .

قيل أنه خسفت فراهم وغطاها الماء ومنها قرية سدوم ، ويقال أنها تحت البحر الميت بالأردن ، ويعلق بعض علماء طبقات الأرض أن البحر الميت يغمر مدنا كانت أهله بالسكان ، وقد أكتشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر وبجواره المذبح الذي تقدم عليه القرابين^(٢) .

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ يَهُودَ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيَّتًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴿العنكبوت﴾ .

(١) (القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٥٢٣١) .

(٢) (الظلال ٥ / ٢٦١٣) .

.... أمطرت السماء حجارة من طين متحجرة قوية شديدة معدة في السماء ومختومة عليها أسماء أصحابها الذين أنزلت عليهم حتي أهلكتهم عن آخرهم - فلم يبق منهم أحد.

قال مجاهد : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم ، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم - ثم كفاها فدمر بعضهم علي بعض .
وذكر قتادة : أنهم كانوا أربع قري في كل قرية مائة ألف ومنها سدوم ، انتسفت القصور والأرض والشجر والدواب فجعل عاليها سافلها ثم اتبعها حجارة من سجيل .
قيل أن القرى هي سدوم وهي العظمي ، وصعبة ، وصعود ، وغمرة ، ودوحاء احتملها جبريل بجناحه .

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّضُورٍ

﴿٨٧﴾ مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٨﴾ ﴿هود﴾ .

٧- مدين وميراث الكفر والتمرد .

.... وقرنا آخر ﴿فَرَأَيْنَاهُمْ يَتَعَذَّرُونَ الْآخِرِينَ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿المؤمنون﴾ .

ويأتي دور مدين ، وهي قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام - أو بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ،، والأيكة شجرة كانوا يعبدونها ، وقيل أن أصحاب الرس هم قوم شعيب وأصحاب الأيكة قوم شعيب ، وأن أصحاب الأيكة ومدين هما واحد « والله أعلم »^(١) .

وكانوا يجترئون على معاصي الله وتكذيب رسل الله ، يخبر الله تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ومخالفة الحق بالتكذيب والإعراض .
أرسل الله تعالى إليهم شعيبا يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن التظيف في المكيال والميزان ، وينهاهم عن العتو في الأرض بالفساد ، وقد كانوا يقطعون الطرق .

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا

الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْشَرُونَ ﴿٨١﴾ ﴿هود﴾ .

﴿وَيَقُولُ لَا يُحْرَمِكُم مِّمَّنْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ

وَمَا قَوْمُ لُوطٍ بِمَنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٢﴾ وَأَسْتَفِرُّوْا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابَرُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَجِيمٌ وَذُوْدٌ

﴿١٠﴾ ﴿هود﴾ .

وكما أجابت ثمود لرسولها أجاب قوم شعيب .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴿٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الشعراء].

قالوها على وجه التعنت والعناد تماما كما قالت قريش للحبيب المصطفى ﷺ ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِهَ وَالْمَلَأْتِكُمْ فَيْلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء].

وجاء أمر الله في مدين ورفقائها قوم شعيب عليه السلام وورثة الكفر والعناد والتمرد ، فإذا بسحابة تظلمهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر فاجتمعوا كلهم تحتها ، وإذا بشرر النار واللبب والوهج العظيم ... ثم جاءت صيحة من السماء عظيمة ترهق الأرواح ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخذت الأجسام .

.... بعث الله عليهم رعدا وحرا أخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلمت من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نارا ... فذلك عذاب يوم الظلة .

قال تعالى: ﴿ فَكَلْبُهُمْ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيحًا ﴿١١﴾ ﴾ [هود].

ذلك لقولهم: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأعراف].

ولما استهزءوا بنبي الله على سبيل التهكم والازدراء: ﴿ قَالُوا بِشُعَيْبٍ أَصَلُّوْا لَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود].

فتولى شعيب عنهم بعد ما أصابهم من العذاب والنقمة وقال مويخا لهم يا قوم لقد أديت ما أرسلت به ولا آسف عليكم ^(١) .

وقال مويخا لهم يا قوم لقد أديت ما أرسلت به ولا آسف عليكم ^(١) .

وقال مويخا لهم يا قوم لقد أديت ما أرسلت به ولا آسف عليكم ^(١) .

وقال مويخا لهم يا قوم لقد أديت ما أرسلت به ولا آسف عليكم ^(١) .

وقال مويخا لهم يا قوم لقد أديت ما أرسلت به ولا آسف عليكم ^(١) .

وقال مويخا لهم يا قوم لقد أديت ما أرسلت به ولا آسف عليكم ^(١) .

﴿ وَقَالَ يَتَوَمَّرُ لَقَدْ أَتَلَّغْتُمْ رَسُولَاتِي رَبِّي وَنَصَحْتُمْ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَأَسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾

﴿ ١٣ ﴾ [الأعراف].

٨- يا حسرة علي العباد.

... ومرة أخرى وليس لهذه المرات نهاية يا ويل العباد ويا حسرتهم علي أنفسهم علي ما ضيعوا من أمر الله ، وفرطوا في حب الله، ما يفتأون يكذبون الرسل ويستهنئون بهم ويجحدون بها أرسلوا به من الحق غير معتبرين بمصارع المكذبين ولا متعظين لآيات الله والحق المبين ، لم يتعظوا بأسلافهم المجرمين وما أصابهم الله بذنوبهم من العذاب المهين .

وضرب الله لهم مثلاً أصحاب قرية أخرى أرسل سبحانه إليها رسولين كما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملته قيل أنهم رسل المسيح إلى أهل إنطاكية التي آمنت برسالته وهم شمعون ويوحنا وبولص ، وقيل أنهم كانوا رسل الله لا من جهة المسيح ، كل ذلك في علم الله ولن يفيدنا الدوران في مثل هذه الغيبات التي لم يشرحها لنا القرآن ، والشاهد هنا أن أهل القرية كذبوا رسلهم بعد ما عزز الله الرسلين بثالث واعترضوا وأنكروا شأن الأمم والقرون مع أنبيائهم .

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا

فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يس].

وما بعد ذلك من الأحداث التي شابهت وطابقت أهل الاعتراضات في تاريخ الرسل والرسالات ، أهل الضلالات الذين لا يطيقون الهدى ويعمدون إلي الباطل ليدحضوا به الحق ويقاومون الحجة ويهددون بالرجم أو الطرد أو الإبعاد .

مرة في قوله تعالي في إبراهيم: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمَتِكَ وَأَهْجُرْ فِي مِيلَاتِي ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ [مريم].

ومرة في قوله تعالي : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ

لَنُعَوِّدَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُلَاقَنَّكَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ [إبراهيم].

وفي قوله تعالي عن شعيب : ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّدُّكَ فِيْنَا

ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ ﴿ ١٩ ﴾ [هود].

وهنا في هذه القرية المثل : ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ نَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ ١٥ ﴾ [يس].

وقال قوم لوط : ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَظْهَرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢] .
وأُنزل الله آياته على رسوله محمد ﷺ في كفار قريش الذين هموا بإخراجه ﷺ من بين
أظهرهم فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا
يَلْبَسُونَكَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦] .

فتوعدهم الله بهذه الآية وأنهم لو أخرجوه ما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا وكذلك وقع
فإنه بعد هجرته صلي الله عليه وسلم من بين أظهرهم وبعد ما اشتد أذاهم له ما هي إلا
سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه بيدر علي غير ميعاد فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره
بهم فقتل أشرافهم وسبي ذراريهم ... سنة الله في الذين كفروا يرسله وأذوهم وتوعدوهم .

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧] .
أما وخلائق ، أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل وخلفا بعد سلف ،
وجعلهم الله أخبارا وأحاديث للناس .

﴿ ثُمَّ أَنفَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ [١٢] مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِيرُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا
رُسُلَنَا تَتْرًا كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُنَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِمَعْضَمٍ بَعْضَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدًا لِقَوْمٍ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون] .

٩- موسى عليه السلام رسول الملك القهار يواجه فرعون الظالم الجبار .

وكان فرعون ملك مصر وملك القبط وملئته قد افتروا وبغوا وطفغوا، سلكوا طريق
الجهل والعدا، وتنافسوا في الغي والظلم وإذلال العباد، حماقة وجهل وشطط وعصيان
لأمر الله .. واستشرى الفساد في البلاد .

وكان فرعون ذو قوة وبطش ، يعذب الناس بالأوتاد ، وإذا غضب على احد مده
مستلقيا بين أربعة أوتاد في الأرض ، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَأْتِرْ صَادٍ ﴿١٤﴾ [الفجر] .

الجنود والعساكر والجموع والجيوش هي التي تشد ملكه وتقوي بطشه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان يعذب الناس بالأوتاد ويشدهم بها إلى أن
يموتوا تجبرا منه وعتوا ، وهكذا فعل بامرأته آسية وابنته ماشطة » .

قال عبد الرحمن بن زيد : كانت له صخرة ترفع بالكرات ، ثم يؤخذ الإنسان فيوتد له
أوتاد الحديد ، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدجه «قمة القهر والظلم» .

ومن جانب الطور الأيمن بالوادي المقدس بالبقعة المباركة ،كلم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام وناجاه ، وأرسله واصطفاه وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ليطلق سراح بني إسرائيل من أسر فرعون وقبضته ، وينقذهم من قهره وتعذيبه .

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۗ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء].

أرسل الله تعالى موسى ﷺ يدعو فرعون ليتطهر من رجس الشيطان والطغيان وندس العصيان .

لقد تجاوز فرعون حده في العدوان والطغيان والكفر والعصيان ، وأمر الله موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون لإبلاغ رسالة الله بالحجة والأدلة ليذكر ويرجع عن غيه وتمرده قال سبحانه وتعالى :

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبَأُ فِي ذِكْرِي ﴿١٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٣﴾ فَقَوْلَاهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ بَيِّنَاتٌ لِّأُولِي بَصِيرَةٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه].

وقال تعالى : ﴿ فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْمُدْحَكُ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه].
وقال سبحانه لموسى ﷺ :

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكُ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سِنِّي ﴿٢٢﴾ فَعَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات].

قال موسى إن الله قد أرسلني إليك فان أظعته سلمت وإن خالفته عصيت .
روى وهب وغيره أن موسى وهارون لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعا من أسد ونمور وفهود يتفرج عليها، فخاف سواسها أن يبطش بموسى وهارون فأسرعا إليها ، وأسرعت السباع إلي موسى وهارون وأقبلت تلحس أقدامها وتبصص إليها بأذنانها وتلصق حدودها بفخذيها فمعجب فرعون من ذلك فقال ما أنتما؟

قالا : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٧﴾ ﴾ [الشعراء].
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفِرُّعُونَ مِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعراف].

وحدثت مناظرة موسى لفرعون بالحجة والبينة أمام قومه من قبط مصر وقال إن الذي أرسلني إليك هو الله خالق كل شيء وربك ومليكه فأطلق بني إسرائيل من أسرك وقهرك ودعهم لعبادة ربك وربهم فإنهم من سلالة النبي الكريم إسرائيل وهو يعقوب ابن اسحق ابن إبراهيم الخليل .

وقد القي موسى عصاه : ﴿ فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣١﴾ وَرَجَّ بِيَدِهِ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ

لِلنَّطْرِينَ ﴿٣٢﴾ [الشعراء] .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴿٣١﴾ فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٣٢﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا

سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٣١﴾ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّا جَنَاحِكَ فَخَرَجَ بِصَاحِبٍ مِنَ الْآخَرَى ﴿٣٢﴾ [طه] .

وانتصر موسى على سحرة فرعون الذين آمنوا برب العالمين رب موسى وهارون ، وفرعون يتوعدهم بالعذاب والتقتيل والتنكيل .

﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ اقْنُصِي فِي يَدَيْكِ آيَاتِ رَبِّكِ وَقَرْنِي لِقَوْمٍ أَكْفَرًا ﴿١٨﴾ [الشعراء] .

تجاوز فرعون حده في العدوان والطغيان والتعذيب والكفر والعصيان .

قال قتاده : كان فرعون أعنف أهل الأرض وأكفرهم فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربه ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يواخذ أحداً إلا بذنوبه ويقول : كان إيمان آسية بنت مزاحم امرأة فرعون من قبل إيمان خادمة فرعون ذلك أن امرأة خازن فرعون جلست تمشط ابنة فرعون فوق المشط من يدها فقالت : « تعس من كفر بالله » فقالت ابنة فرعون : ولك رب غير أبي ؟

قالت نعم « زي ورب أبيك الله ورب كل شيء الله » فلطمتها ابنة فرعون وضربتها وأخبرت أباه .. فأرسل فرعون إليها فقال : تعبدين ربا غيري ؟ ... قالت نعم ربي وربك ورب كل شيء وإياه أعبد .. فعذبها فرعون وقتل أبناءها الذين بشرت أرواحهم أنهم بالثواب عند الله^(١) .

والشاهد أن امرأة فرعون سمعت كلام روح ابنها الأكبر الذي بشر أمه بها عند الله لها -

فأمنت آسية بنت مزاحم أمراه فرعون ، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون .

واطلع الله فرعون علي إيمان امرأته فقال للملأ : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟

(١) (والقصة بالكامل لمن أراد الإطلاع والزيادة بتفسير ابن كثير ٤ / ٣٩٤) .

فأثروا عليها - فقال لهم إنها تعبد غيري - فقالوا له أقتلها - فأوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها - فدعت ربها فقالت :

﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١١) ﴿التحریم﴾ .

فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة ... فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ؟ إنا نعذبها وهي تضحك ! ... فقبض الله روحها في الجنة - رضي الله عنها ^(١) .

ويحدث فرعون موسى وهو يعرفه فقد تربى في بيته وهدده فرعون .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنَّمَا أُوتِيتُكَ نَارًا مِّنْ عَشِيرَتِكَ أَيْنَ مَوَدَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٨) ﴿الشعراء﴾ .

﴿ قَالَ لَمِنَ أُمَّتِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴾ (٢١) ﴿الشعراء﴾ .

ونادي فرعون في قومه قال : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٨١) ﴿الزُّخْرُف﴾ .

وقد اخبرنا الله تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه في دعواه الإلهوية لنفسه قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ إِنِّي مَلَأْتُ لَكُمْ مِنَ الْإِلَهِ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَسْنُنْ عَلَى الطَّيْرِ فَأَحْمِلْ لِي صَرْحًا لِّكُلِّ طَائِفٍ مِّنْ آلِ إِيلَافٍ مِّنْ مِّمِّي وَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي مِصْرَ فِئَةٌ مِّنْ رَبِّكَ فَتَأْتِي الْفُتُورَ ﴾ (٦٨) ﴿القصص﴾ .

واستمر فرعون علي كفره وطغيانه مكذبا بالحق متمتعا عن الطاعة فاجرا في كفره : ﴿ قَالَ سَنُقَدِّمُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (١٧٧) ﴿الأعراف﴾ .

وكانت النهاية المؤلمة لفرعون .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ (١١) ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَخْشَى اللَّهَ﴾ (١٣) ﴿النازعات﴾ .

١٠ - هلاك الطاغية .

فلما تمادي قبط مصر علي كفرهم وعنادهم متابعة لفرعون ملكهم ، ومخالفة لنبي الله موسى ﷺ دعا موسى ربه وهو غاضب لدين الله .

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا ﴾

عَنْ سَيِّدِكَ رَبَّنَا أَطْمَسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ كَمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا نَتَّعَاذُ سَكِينَةَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ [يونس].

استجاب الله تعالى الدعوة كما استجاب لنوح من قبل حيث قال :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦١﴾ [نوح].

ولأنه من سنن الله في عباده أن ينجي الذين آمنوا ويهلك الكافرين .. أمر الله تعالى

موسى أن يخرج بني إسرائيل وأعلمه أن فرعون وقومه سيبعونه ليردوهم : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أْمُرْ بِعِبَادِي إِذْ كُفِّرُ شَبْعُونَ ﴿٥٢﴾ [الشعراء].

وخرج موسى بهم ليلا قاصدين بلاد الشام .

فلما علم فرعون اشتد غضبه فأرسل في المدائن حاشرين لتلحقه العساكر ، وإذا بموسى يترك الطريق إلى الشام على يساره ويتوجه نحو البحر مجيبا على قومه أنه قد أمر من الله بذلك .. ولحقهم فرعون بالجنود .. وتراءى الجمعان ولم يبق إلا المقاتلة ، وجنود فرعون لا قبل لموسى وقومه بها ولا قدرة علي ردها .. البحر أمامهم والعدو بقوته وراءهم .. قالوا انتهى الأمر وإننا لمدركون، انتهينا لا محالة .. وموسى يتلقى الأوامر من ربه الذي وعده بالهداية والظفر يرد عليهم بكل ثقة ..

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ [الشعراء].

ويوصي موسى قومه باحتمال الفتنة ، والتجملد بالصبر على البلية والاستعانة بالله

والتوكل عليه : ﴿ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَأْمَنُوا بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٤﴾ [يونس].

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَوْعِبُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿٦٤﴾ [الأعراف].

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ وَجِئْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ [يونس].

فلما زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، واقترب فرعون وجنوده أوحى الله الحليم العظيم إلى موسى الكليم « أن اضرب بعصاك البحر ، فلما ضرب انفلق اثني عشر طريقا عدد أسباط بني إسرائيل ووقف الماء بينهما كالجبل بقدرة القادر الذي يقول للشيء كن فيكون » .

﴿ فَأَرْحَبْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَمَا كَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَأَزْلَقْنَا نَمَّ الْأَخْرِيْنَ ﴿١٤﴾ وَأَجْمَعْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشعراء].

فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين فلما تجاوزه بأخرهم كان أول جنس لفرعون قد قدم، وأراد موسى أن يضرب البحر ليرجع كما كان حتى لا يصل فرعون وجنوده إليهم ولكن الأمر من السماء .

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان].

كان الله تعالى قد شاء إغراق فرعون ولهذا أمر موسى أن يترك البحر ساكنا على حاله ، حتى كان فرعون وجيشه في منتصف البحر وكاد أن يصل إلي الضفة الأخرى أصدر الله تعالي أمره إلى جبريل عليه السلام فحرك الموج ، وقيل أن جبريل عليه السلام اقتحم البحر فلما رآته جنود فرعون اقتحموا وراه مسرعين فأمر الله كلمه موسى فيها أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضرب فارتطم عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان .. غرق فرعون وجيشه وغرق معه العناد والاستكبار والعظمة والكبرياء والكفر والضلال ، ورأي فرعون وهو يفرق مقعده في النار .. ولما رأي فرعون ما رأيناه تحقق أن هذا من فعل رب العرش الكريم وندم حيث لم يعد ينفع الندم : ﴿ نَسْتَدُومُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَسَ الْوُرُودَ الْمَوْرُودُ ﴿١٨﴾ ﴾ [هود].

يقود قومه ويمضي بهم إلى النار حتى يدخلهم فيها ويصليهم سعيها ويسس الدخول الذي يدخلونه : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر].

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَوَّزْنَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَبْنَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾ ءَأَلْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدِيكَ لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَأَيُّهُ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ عَنِ ءَأَيْتِنَا لَعَنُوتُ ﴿١٩﴾ ﴾ [يونس].

والله أعلم لورد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان .. فكان الهلاك للجبارين الكافرين ونهاية للظالمين التكبريين ، وانتهت بمصارع الطغاة والمجرمين وأهل الكفر والشرك على مدى القرون أجمعين .

﴿ وَأَجْبِنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الشعراء].

وتلك سنة الله في هلاك الظالمين .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ يُبَدِّئُهُمْ لِمَا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر].

١١- بنو إسرائيل قوم يجهلون :

ونجى الله بني إسرائيل من أيدي الظلمة الفاسقين ، وأغرق فرعون الفاجر الجبار العنيد .. نجاهم من قبضته ومن جبروته بعد أن سلبهم العز والمال والأنفس ، وهلك كل شيء باستثناء المستضعفين والعمامة والرعايا والفئة القليلة التي آمنت برب موسى ، كل شيء بعد ذلك هلك ، الحاشية والسلطان والأمراء والجنود .

﴿ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف].

ولقد عاين بنو إسرائيل من آيات الله وقدرته وما امتن عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه وهم ينظرون كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ تَجَنَّبَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم بِسُوءِ الْعَذَابِ يَذْمُونَ أَنبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَجْبِنْتَكُمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَسْرَهُمْ لِنُظْرُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة].

وكان الناس قد ألقوا السخرة والعبودية لغير الله ، نسوا الجبروت والذل الذي عاشوه والمعجزة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكتهم أجمعين ، اشتاق القوم إلى الوثنية والشرك لمجرد أن رأوا قوما يعكفون على أصنام آلهة لهم ، بعد خروجهم من مصر إلى أرض الشام ، وقد جاوزوا البحر ونجوا من القوم الظالمين .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَذِهِ لَمُتَّبِعَاتُكُمْ فِيهِ وَيَنْظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأعراف].

روى ابن جرير مرفوعا إلى أبي واقد الليثي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى خيبر قال وكان للكفار سدره يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط -

قال : فمررنا بسدره خضراء عظيمة ، قال فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

قال : قلتُم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم إلهة قال : ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَذُلَاءَ مُتَّبِعَاتُهُمْ فِيهِ وَيَطَّلِمُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف].
وفي رواية النسائي والترمذي قال : فقال النبي ﷺ : الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم إلهة إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم ^(١) .

فكان هذا المثل يضربه الله للقللة المؤمنة في مكة والمطاردة من الشرك لبيبن ما أورث الله المستضعفين من بعد طاغوت فرعون وقومه .. ورثوا ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال وما كانوا يعرشون - ذلك قوله الله تعالى : ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص] .

وتحقق وعد الله للمستضعفين الصابرين وأورث الله تعالى بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم بأرض الشام ومصر وملكوا الأرض كلها بخيرها وزروعها وأنهاها قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَوْزَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف] .

بهذا الهلاك الذي دمر الله علي الظالمين وما كانوا يعرشون ونجاة بنو إسرائيل ونيهم سالمين كان على موسى أن يواجه معركة جديدة بعد نهاية معركته مع فرعون ونصر الله له - هناك مهمة جديدة يواجه بها الذي أصاب بني إسرائيل والإهانة التي عشقوها والقسوة والجبن والضعف والإرهاب الذي عاشوا فيه في ظل الوثنية الفرعونية .

١٢- موسى والمهمة الجديدة في جهاد الفتنة والشرك بيني إسرائيل .

قال سبحانه وتعالى : وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَقَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة] .

فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور فاستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ، وأراد موسى أن يذكره بالإصلاح وعدم الفساد .. من باب النصيحة والتذكير

(١) البداية لابن كثير ٣١٢ .

فالمعلوم أن هارون نبيا ويعلم ذلك .. ولكنه من بين كل موقف وأخر يعلمنا الإسلام أمرا من أخلاق ديننا ، وهو هنا التواصي بيننا بالنصيحة ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ خَلْفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الاعراف] .

أي كن خليفتي تنوب عني «ذلك أثناء قيامه بمهمته للقاء ربه» .

وفي صحيح مسلم عن سعد ابن أبي وقاص قال . سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي حين خلفه في بعض مغازيه :

«أما ترضى أن تكون مني بمرتلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» .

وأستخلف النبي ﷺ على المدينة ابن مكتوم وغيره ، ولم يلزم بذلك استخلاف دائم ، وهارون كان مع موسى في أصل الرسالة حين سأل موسى ربه فأجاب : ﴿ وَأَجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ (١) هَارُونَ أَخِي ﴿ ٢٠ ﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرَى ﴿ ٢١ ﴾ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ﴿ ٢٢ ﴾ كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿ ٢٣ ﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿ ٢٤ ﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿ ٢٥ ﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿ ٢٦ ﴾ [طه] .

ثم قال تعالى : ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّآ فِي ذِكْرِي ﴾ (١١) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى

﴿ ١٣ ﴾ [طه] .

وفي غيبة موسى عندما ذهب إلى ميقات ربه على الجبل اتخذ بنو إسرائيل العجل من بعده ، قال لهم السامري هذا إلهكم وإله موسى فاطمأنوا إلى قوله ، ولكن هارون النبي والذي استخلفه أخوه على بني إسرائيل ونصحه وذكره بالإصلاح كان قد حذرهم ونهاهم .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي

﴿ ١٠ ﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ [طه] .

ولما رجع موسى إلى قومه ورأى ما حدث فيهم أخذ برأس أخيه يجره إليه وشرع يلوم أخاه ويشده من شعره ولحيته وألقى الألواح مما اعتراه من الغضب والأسف حين اشرف علي قومه وهم عاكفون علي عبادة العجل وعلى أخيه في إهمال أمرهم ، وبين له أخوه أنهم استضعفوه وكادوا يقتلونه ... وأيضا ما بين الآيات وبعضها يضع الله للناس أمورا تلفت إليها آيات القرآن نظرهم ليعتبروا ويعملوا .. وفي هذا الموقع وفي قول موسى : ﴿ قَالَ

يَهْدُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿ ١٧ ﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿ ١٣ ﴾ [طه] .

فبين هارون أنه إنما قام خوفاً على نفسه من القتل ، فدللت الآية على أنه لمن خشى القتل على نفسه عند تغيير المنكر أن يسكت ^(١) .

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي تَشْخِيبِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] .

قال موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦١] .

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً .

﴿ فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤] .

قال سفيان بن عيينة : التوبة نعمة من الله أنعم بها الله على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ، وكانت توبة بني إسرائيل القتل .

قال الزهري : لما قيل لهم : ﴿ فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤] . قاموا صفين وقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم كفوا فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحي وأقوال أخرى ^(٢) .

١٣ - موسى والتوراة ميراث بني إسرائيل .

... وأعطى الله موسى التوراة تماماً لنعمة الله على عبده موسى وفيها الهداية والرحمة والرشاد وهي أول كتاب سماوي نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام بعد هلاك فرعون وملأته .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤] .

ليتذكر الناس ويبتدوا وليروا كيف تتدخل يد القدرة بين الطغاة والمستضعفين فتختم للطغاة بالهلاك والتدمير ، وتختم للمظلومين بالخير والتمكين ، ويتقوا بشواهم في الآخرة .

(١) (القرطبي ٤/ ٢٨١٨) .

(٢) (القرطبي ١/ ٤٤١ - ابن كثير ١/ ٩٢) .

عن أبي سعيد الخدري قال ما أهلك الله قوما بعداب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة علي وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخروا قرده بعد موسى ^(١) وقرأ الآية : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص].

وفي رواية أخرى ما أهلك الله قوما بعداب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى « أي بعد قوم نوح وعاد وثمود ، وقيل من بعد غرق فرعون وقومه وخسف الأرض بقارون » .

وتلك سنة الله تعالى بإهلاك الظالمين وتوريث الأرض للمستضعفين الصابرين وجعل الله تعالى العاقبة لبني إسرائيل فأورثهم بلاد فرعون وأمواله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تعالى وإتباع رسوله موسى ﷺ وفي الكتاب الذي أورثوه .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر].

١٤ - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ورجال أبوا عن الجهاد .

فلما انفصل موسى من بلاد مصر وواجه بلاد المقدس وجد فيها قوما من الجبارين فأمر موسى قومه بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقْوِمُوا أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مِمَّا تَشْتَكُونَ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [٢٠] ﴿يَقْوِمُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [٢١] [المائدة] .

فأبوا عن الجهاد .. لقد خافوا من هؤلاء الجبارين ، وقد عابنوا من قبلهم فرعون وجبروته وقوته وذلم علي يديه ، وكذلك رأوا هلاكه عندما حقت عليه كلمة الله ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسا وأكثر جمعا وأعظم جندا .

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتَلْتُمْ﴾ [٢١] [المائدة] .

وهنا نقف وقفة نذكر فيها أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر حينما استشارهم رسول الله ﷺ في الذهاب إلى النضير قال سعد بن معاذ ؓ « فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت البحر بنا لحضناه معك ما تخلف منا رجل واحد فسر بنا علي بركة الله » .

(١) وهكذا رواه أبو بكر الرازي في مسنده عن أبي سعيد مرفوعا .

وروي الإمام أحمد عن طارق بن شهاب أن المقداد قال لرسول الله ﷺ بدر « يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون »^(١).

وصدق الله إذ يقول : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ حَاجَتَهُ وَمَنْ تَطَوَّاهُ وَيَدْرَأُهَا وَمَنْ بَدَّلُوا بَدِيلًا ۗ﴾ [الأحزاب].

وما ترك هؤلاء الرجال عهد الله وما نقضوه ولا بدلوه .

.... قال البخاري عن يزيد بن ثابت عن أبيه قال :

لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجد لها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ؓ الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين .

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وروي الإمام أحمد عن أنس ؓ قال : (عمي أنس بن النضر ؓ سميت به) - لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وغيبت عنه ، لئن أراني الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصنع ، قال : فهاب أن يقول غيرها .

فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد - فاستقبل سعد بن معاذ ؓ فقال له أنس ؓ : يا أبا عمرو واهأ لريح الجنة - إني أجدته دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل ؓ - قال : فوجد في جسده بضع وثمانون ضربة وطعنة ورمية .. فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضير : فما عرفت أخي إلا بينانه « فنزلت الآية على رسول الله ﷺ »^(٢).

وما بدلوا الوفاء بالعداء ، وما غيروا عهدهم .. بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كالمنافقين الذين لا عهد لهم .

﴿وَأَسْبَلُونَكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّعِيفِينَ وَتَتَّبِعُوا أَمْرًا﴾ [محمد].

وإنما يختبر الله عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب مع أنه سبحانه وتعالى يعلم كل شيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم .

(١) البداية ١ / ٣١٥ .

(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة (ابن كثير ٣ / ٤٧٥) - (وفي رواية

(القرطبي ٧ / ٥٤١٨) . يا أبا عمرو ، أين ؟ قال واهأ لريح الجنة أجدتها دون أحد .

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَاتِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِمَكُمْ عَلَىٰ الْقَبِيحِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَابُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران] .

ليجزى الله الصادقين بصدقهم وصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، ويعذب الذين نقضوا عهد الله وخالفوا أوامره فاستحقوا عقابه .. ولكنهم تحت مشيئة الله في الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم .. وأرشدهم إلى النزوع عن التفاق إلى الإيثار والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان .
ورحمة الله ورأفته بخلقه هي الغالبة .

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب] .

وهذا الصحابي الجليل عمير بن الحمام الأنصاري يرمي ما كان معه من التمر يأكل فيه حتى لا يؤخره أكل الثمرات عن الجهاد في سبيل الله لينال الجنة التي وعد الله بها عباده ، واشترك مع المسلمين في التصدي لقوي الشر والبيغي .. ودخل معركة من معارك المسلمين حاملا سلاحه بيمينه يهوي على رقاب المشركين .. فما زال حتى قتل شهيدا تاركا للأجيال من بعده مثلا أعلى في التضحية والفداء^(١) .

هؤلاء رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه اتبعنا أفعالهم وجهادهم بعد أن رأينا بنو إسرائيل الذين أعطاهم الله نعمة عظيمة فما رعوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها .. وفي أول اختبار لهم ، أبوا الجهاد هؤلاء الجبارين الذين وجدوهم في بيت المقدس وقالوا لرسولهم : ﴿فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة] .

وهؤلاء بنو إسرائيل ... استعصوا عن مصاولة الأعداء ، ومقاومة المردة ، وأبوا عن الجهاد في سبيل الله

هؤلاء بنو إسرائيل ... أفسدوا في الأرض ، وقتلوا الأنبياء والعلماء ، وسفكوا الدماء ، واستحلوا المحارم ، وتكبروا عن طاعة الله ، وتمردوا على الله ، وخالفوا أحكام التوراة ... تكبروا وبلغوا وطغوا واستطالوا بالعدوان .

أخبرهم الله في الكتاب الذي أنزل عليهم ... أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوا كبيرا .. أي يتجبرون ويطغون ويفجرون .

(١) كتاب الجمعة والعيدين (لجنة من كبار علماء الأزهر ص ٣٩٢) .

فقال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَรَتَيْنِ وَلِنَعْلَنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝١٠١ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝١٠٢﴾ [الإسراء].

فلما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فأذلهم وقهرهم .. سلط الله عليهم أقواما ذوي قوة وبطش في الحروب فأغاروا عليهم ... فإذا جاء وعد أولاهما «أي أولى الإفسادتين» بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد «أي سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولى بأس شديد قوة وعدة وعدد. وسلطنة شديدة» فجاسوا خلال الديار «أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي بينها ووسطها لا يخافون أحدا».

﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝١٠٢﴾ [الإسراء].

قال ابن عباس وقتادة : هو جالوت الجذري ثم قتل داوود جالوت.

وقال سعيد بن جبير : أنه سنحاريب ملك الموصل وجنوده ، وقيل إنه بختنصر ملك بابل ... «والذي قال فيه ابن حاتم أنه سار إلى بلاد المقدس وقتل الكثير من بني إسرائيل» .. سلط الله عليهم أقواما من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا فقتلوهم واتخذوا من جلودهم نعالا ، ومن شعارهم جبالا^(١).

﴿ وَإِذْ عُدْتُمْ عَدُنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝١٠٨﴾ [الإسراء].

قال قتادة : عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون^(٢).

فإذا جاء وعد الآخرة وافسدوا الكرة الثانية .. جاء أعداؤهم ليهينوهم ويقهروهم ويدخلوا بيت المقدس كما دخلوه أول مرة .. المرة التي جاسوا فيها خلال الديار ليدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه .

﴿ وَإِذْ خُلُوا إِلَى مَنَاجِدِهِمْ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَاسْتَرْوُوا مَا عَلَوْنَا نَسِيرًا ۝١٠٧﴾ [الإسراء].

وقلنا لبني إسرائيل من بعد هلاك فرعون اسكنوا أرض الشام ، فإذا جاءت القيامة حشرناكم من قبوركم جميعا مختلطين قد التف بعضكم على بعض - المؤمن بالكافر - لا يتعارفون ، ولا ينحاز أحد إلى قبيلته وحيه .. كلكم جميعا من جهات شتى مجتمعين

(١) ابن كثير ٣ / ٢٥ .

(٢) ابن كثير ٣ (٢٥ / ٢٦) .

مختلطين .. هذا ومخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، وقيل فإذا جاء وعد الآخرة يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء (١) .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ [الإسراء] .

قال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعا من جهات شتى .
ويقول صاحب الظلال (٢) : وقع في علم الله مآل ما سيكون من بني إسرائيل من قضائه القهري الناشئ عن أفعالهم ، وكلما ارتفعوا وأفسدوا سلط الله عليهم من عباده من يقهرهم ويدمرهم تدميرا .

الأولى يعلون في الأرض المقدسة ويصبح لهم فيها قوة وسلطان .. فيفسدون فيها .. فيبعث الله عليهم عبادا من عباده أولى بأس وبطش وقوة يستبيحون ديارهم ويطأون ما فيها ومن فيها بلا تيبب .. وكان وعدا مفعولا لا يخلف ولا يكذب حتى إذا ذاق بنو إسرائيل القهر والذل فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا أحوالهم ... وإذا استعل الفائحون وغرتم قوتهم فظفروا هم الآخرون وافسدوا في الأرض .. مكن الله للمستضعفين من المستكبرين .

﴿ تُرَدِّدْنَا لَكُمْ الْكُفْرَةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيكُمْ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿١﴾ [الإسراء] .

وصدقت النبوءة ووقع الوعد - فسلط الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة ، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض ودمر مملكتهم تدميرا .
وعاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فسلط عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ، ثم عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم عبادا آخرين .. حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم هتلر .

ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة إسرائيل التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الولايات .. وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقا لوعد الله ، ووفقا لسته التي لا تتخلف .

﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاؤَنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ [الإسراء] .

(١) م الطبري ١ / ٤٨٩ - القرطبي ٥ / ٤٠٦٧ .

(٢) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٤ / ٢٢٠٨ .

... وإن غدا لناظره قريب .. تحصر جهنم الكافرين فلا يقلت منهم أحدا.

١٥ - ثمرة الميراث الملعون فيما مضى من القرون .

وهكذا كانت القرون الماضية ينجيم عليها الفساد والضياع ، ويطبع عليها الجهل والضلال والذل والاستعباد ، والكفر والشرك .. أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وخلفا بعد سلف .

كل جيل يرث من الذي سبقه ميراثا من ميراثهم لأسلافهم فيزيد فيه ، ويزينه الشيطان إليهم .. فيسلموه للجيل الذي يليه شركا وكفرا ، وفسادا وظلما وطغيانا ، وجهلا واستبدادا .

* رأينا ميراث قوم نوح من الضلال والعصيان ، والكفر والشرك وعبادة الأصنام ، والإعراض والاستكبار والاستهزاء بنوح عليه السلام .. وكيف كان عقاب الله ونكاله .

* ورأينا ميراث قوم عاد من عبادة الأصنام والأوثان ، والاستكبار والبغي ، والعتو والعصيان ، والجحود بآيات الله وعصيان رسوله .. وكيف كان عقاب الله ونكاله .

* ورأينا في قوم ثمود الجهل والعناد ، والسخرية والاستهزاء ، والتكذيب برسولهم صالح عليه السلام وعقرهم الناقة .. وكيف كان عقاب الله ونكاله .

* ورأينا قوم مدين وقد عثوا في الأرض الفساد وقطع الطريق ، وتكذيب الرسل ، والإجترأ على معاصي الله بالتمرد وشدة الكفر وعبادة الأنداد ، بخلاف شهرتهم في تطفيف المكيال والميزان . وكيف كان عقاب الله ونكاله .

* وقوم لوط الذين خرجوا عن فطرة الدين وانحرفوا إلى اللوطية ، وقطعوا الطرق ، وارتكبوا المنكر ، وقلدوا النساء .. وكيف كان عقاب الله ونكاله .

* وقوم إبراهيم الخليل وكيف نصره الله عليهم ، وأيده بالمعجزات الظاهرة .. وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان لعنه الله .

* ورأينا فرعون الفاجر الجبار المتكبر الذي بارز الله في سلطانه وأدعى الإلهية ، وقومه الغارقون معه في الشرك والظلم والطغيان والجحود والاستعباد .. ثم كيف كان عقاب الله ونكاله .

* ثم رأينا بني إسرائيل بعد هلاك فرعون وقد ألقوا السخرية والبعودية لغير الله ، وخالفوا نبيهم وعصوه ، وكتابهم حرفوه ، وأفسدوا في الأرض ، وقتلوا الأنبياء ، ولم

يشكروا نعم الله عليهم بل قابلوها بسفك الدماء ، واستحلال المحارم ، والتكبر عن طاعة الله ... ويا ويلهم من عقاب الله ونكاله .. ونصرة المؤمنين عليهم في الدنيا إن شاء الله .

* ميراث سيء كثرت فيه ذنوب العباد بفسادهم وفسادهم للبلاد ، ولم يكن يستحق إلا عقاب الله ونكاله .. ليرى كل من تساوره نفسه بالعصيان كيف يكون عقاب الله .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١٠) ﴿ [العنكبوت] .

أغرق الله أهل الأرض في قوم نوح حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال .

﴿ فَفَنَحْنُ أَوَّلَ بَأْسٍ سَاءٍ لِّمَنْ هِيَ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر] .

* وسلط الريح علي قوم عاد فألقتهم موتي كأنهم أعجاز نخل خاوية .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١١﴾ تَزِيغَ الْإِنْسَانَ كَأَنَّهُمْ أَعْمَارُ نَخْلِ مُّسْفَعٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر] .

* وأرسل الصيحة علي قوم ثمود حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَيْبَةِ الْخُطَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ [القمر] .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمِينَةَ آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْمَارُ نَخْلِ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة] .

* ورفع سبحانه قري اللوطية حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأهلكهم جميعا .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مُّنْصُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] .

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُثْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر] .

* وأرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارا تطفى.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيحًا ﴿٦٤﴾﴾ [هود].

* وأغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم.

﴿وَأَجَعَلْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء].

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٦٩﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [القمر].

* وقارون لما بغى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَلْمَ أُنَّكَ اللَّهُ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ ۗ مِنَ الْقُرُونِ مِن هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۗ وَلَا يُشْلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصاص].

﴿فَنَسَفْنَا بِيَهُمُ الْوَادِيَةَ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ فَتْرَةٍ يَتَصَوَّرُونَ ۗ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصاص].

.. وسوف تأتي إليه بالمزيد من البيان في كتابنا «النصاب الذهبى في ميراث حضرة النبي».

* وبعث الله على بني إسرائيل قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وقتلوا الرجال ، وسبوا الذرية والنساء ، وأحرقوا الديار ، ونهبوا الأموال ..

ولا زال الأمر منتظرا ، فوعد الله حق على المفسدين والمجرمين ، ولن يخلف الله وعده ... وإن غدا بمشيئة الله لناظره قريب .

* والمكذبون الضالون في كل أمة وفي كل جيل ليسوا أكرم على الله من الذين أهلكتهم بذنوبهم .. وهو سبحانه وتعالى العالم بجميع أعمالهم خيرا وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء].

١٦ - هلاك البلاد بمعاصي العباد ... والمعاصي موارث .

* وإذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سببا لهلاكها وتدميرها .. وتلك سنة الله في المفسدين .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

[الإسراء].

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الذين يتوفر لديهم المال والخدم وينعمون بالراحة ، حتى ترتفع نفوسهم في الفسق والفجور ، ويستهترون بالقيم والمبادئ والكرامات في الأعراض والحرمات .. فإذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادا ، ونشروا الفاحشة وأشاعوها ، وأنقصوا المكيال والميزان ، ومنعوا زكاة الأموال، وارتخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ...

فنقضوا عهد الله وعهد رسوله ﷺ ، وامتنعت أنتمهم أن تحكم بكتاب الله .. فاختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وفسدت أمور الجماعة.. فلا يأمن أحد على نفسه ، ولا يقف أحد عند حده ، واختلت الموازين .. فإذا هو الفساد في الأرض أصاب الخلق في الأخلاق والأرزاق ، وهلكت البلاد بمعاصي العباد .

وتلك السنة قد مضت بهلاك الأولين من بعد نوح عليه السلام قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل .

والمعاصي مواريث .. فكل معصية ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكتها الله .. اللوطية ميراث عن قوم لوط ... وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب .. والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون والتكبر والتجبر ميراث قوم هود وكلما فشت الذنوب في أمة من الأمم انتهت بها إلى ذلك المصير... ذلك ما أخبرنا به الخبير البصير .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : يا معشر المهاجرين .. خصتال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن .

لم تظهر الفاحشة^(١) في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع^(٢) التي لم تكن في أسلافهم .

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين^(٣) وشدة المؤنة وجور السلطان .

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر^(٤) من السماء ولولا البهائم لم يمطروا .

(١) الفاحشة (أي الزنا) .

(٢) الأوجاع (أي الأمراض) .

(٣) السنين (أي الفقر) .

(٤) القطر (أي المطر) .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب عليهم عدو من غيرهم فبأخذ بعض ما في أيديهم .. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم^(١) .
ولو كان في هذه القرون من ينهي عن الفساد في الأرض ويعيد الظالمين عن ظلمهم ما أصيبت بالهلاك والدمار .

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١١) ﴿هود﴾ .

١٧ - الرسالة قبل الأخيرة .

ثم تأتي الرسالة قبل الأخيرة .. الرسالة التي سبقت رسالة الإسلام ، وهي رسالة عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل .. بشرت به الملائكة أمه مريم قبل خلقه في بطنها .

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (١٤) ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٧) ﴿آل عمران﴾ .

وعيسى عبد من عباد الله خلقه الله وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات .. خلقه الله من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم وقال له كن - فكان .

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨١) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠) ﴿آل عمران﴾ .

وقد بين الله سبحانه وتعالى أصل ميلاد أمه مريم .. وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى عليه السلام في «سورة مريم» - ولما كانت هذه كلها أمور غيبية أنبأنا الله عنها في كتابه ولا يعلم تأويلها إلا الله - فلا طائل وراء البحث فيها - وعلينا الإيمان بها ، وأن نتلقاها بالتصديق .

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧) ﴿النساء﴾ .

يتكلم الوليد في المهدي ليبري ساحة أمه العذراء القديسة الطاهرة العفيفة، والتي وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد .. أنطقه الله في المهدي كما تنطق الجوارح يوم القيامة للرد

(١) أي جعل حريهم بينهم - والحديث رواه ابن ماجه والبخاري والبيهقي فقه السنة ١ / ٣٢٢ .

على اليهود عليهم لعنة الله الذين لم يتورعوا في أن يلصقوا الشبهات بمريم الطاهرة -
قبحهم الله .

أخبر عيسى وهو في المهدي بها قضي من أمره وبها هو كائن إلى أن يموت ، وأعلن عبوديته لله ، فهو ليس ابنه ، وليس إله ، وليس هو ثالث ثلاثة ... يعلن أن الله جعله نبيا ، لا ولدا ولا شريكا ، وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، والبر بوالدته ، والتواضع مع عشيرته ، وإنه يموت ويبعث ، وقد قدر الله له السلام والأمان يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

قال تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتُ هَٰؤُلَاءِ مَا كَانُوا أَبْنَاءَ رَبِّكَ وَأَمْوَءٌ مَّا كَانَتْ أُمَّكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ لَكِنَّا نَمُوتُ وَأَحْيَا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم] .

وكان واجبا على النصارى أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله ، وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، وأضيفت إليه روح الله تشريفا لها وتكريما .

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الضُّمِيرُ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحریم] .

١٨ - ميراث النصارى .

* ولكن طائفة منهم جاهلة زعموا أن المسيح هو الله وطائفة أخرى قالت هو ابن الله والثالثة قالت هو ثالث ثلاثة وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم - لعنهم الله قد زعموا أن الله ولداً أو شريكا .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة] .

فأخبر الله تعالى عن كفرهم وجهلهم وبين أن الله هو الخالق القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ شَفِيعٌ لِّمَنْ هُوَ رَاجِعٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِالطَّعْمَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُوا أَن يُوقَفُوا ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة].

حكم الله تعالي بكفرهم شرعا وقدرنا فقد صدر منهم ذلك مع أن الرسول إليهم هو عيسى قد بين لهم أنه عبد مخلوق داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتوعدهم بالنار والحزني والهوان والعار على خلاف ذلك ^(١).

١٩ - محمد ﷺ في التوراة والإنجيل .

ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى عليه السلام قام فيهم خطيبا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحد وهو محمد ابن عبد المطلب من بني هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليه السلام.

«ورد ذكر النبي ﷺ في التوراة والإنجيل» .

يقول تبارك وتعالى :

﴿ يَا مَرْيَمُ بِالْمَعْرُوفِ وَبَيْنَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَجِدْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهُمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهُنَّ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وهذه صفة رسول الله ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أهمهم بيعته وأمروهم بمتابعتهم ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم .

عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ : قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصنفته في القرآن ^(٢) .

(١) البداية لابن كثير / ٤٦٦ .

(٢) الشيخ محمد الصابوني (النبوة والأنبياء ٢١٦) ابن كثير (٢ / ٢٥٣) القرطبي (٤ / ٢٨٢٨) .

« يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأمينين ، أنت عبدي ورسولي ، إسمك المتوكل .. ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق ولا تدفع بالسيئة السيئة ولكن تعفو و تغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقول لا إله إلا الله ، ويفتح به قلوبا غلغا ، وأذانا صما ، وأعيننا عميا .. قال عطاء : ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلف حرفا ، إلا أن كعبا قال بلغته «قلوبا غلوفيا وأذانا صموميا و أعيننا عموميا» .

والأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب وذلك من أعظم دلائل نبوته ﷺ .

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الصف] .

مصدقا لما تقدمني من التوراة التي أنزلت على موسى .

وروي أن النبي ﷺ قال : إسمي في التوراة أحميد لأني أحميد أمتي عن النار ، وأسمي في الزبور الماحي محام الله بي عبدة الأوثان ، وإسمي في الإنجيل أحمد ، واسمي في القرآن محمد لأني محمود في أهل السماوات والأرض .. وفي الصحيح لي خمسة أسماء..أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي تحشر الناس علي قدمي وأنا العاقب^(١) .

وقد فرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالَّذِي يَحْدُوثُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف] .

وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة التي كانوا يتواصون بكتمتها ، كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا يتظرون مبعث نبي قد أظلمهم زمانه .

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداة والكيد والتضليل ، و حاربوه بشى الوسائل والطرق وازداد كيدهم لهذا الدين الذي قدر الله تعالى أن يظهره على الدين كله ، وأن يكون هو الدين الأخير^(٢) .

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٦٨٠٨ .

(٢) ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٦ / ٣٥٥٧ .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الصف].

ومن أشد ظلماً وعدواناً ممن اختلق على الله الكذب بقوله عن النبي ﷺ إنه ساحر ، وما جاء به سحر .. إذ دعا إلى الدخول في الإسلام .

ومن أشد ظلماً من هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ويختلقون الباطل ويفترون فيه في كل جيل من الأجيال - هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ولن يوفقهم الله لإصابة الحق الذي يريدون إبطاله - والله متم دينه وناصر رسوله ولو كره الكافرون .

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الصف].

وقد أخبر الله تعالى أنه سبحانه يسأل عيسى ابن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له، والتفريع والتوبيخ لعابديه .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِحَاقِ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا آَعَلَّمَهُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَٰلِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ إِنَّ آَعِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة].

والآيات واضحة تفسر نفسها وتثبت وجودها وتؤكد أمرها بأن كل شيء بيد الله وحده ، وهو المعبود وحده .. وعيسى ﷺ عبد لله من عباده ... فمن كذب وافتري وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه فقد أشرك - تعالى الله عما يقولون قال عيسى :

﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ آَعِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّزِيزُ لِلْكَافِرِ ﴾ [المائدة].

ولم يقل فإنك أنت الغفور الرحيم .. فقد أسند الأمر لله .

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح ، وقال إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانها وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً ^(١) .

٢٠- ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

وقد أخبر الله تعالى عن ملا بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى ﷺ وإرادته بالسوء والصلب حتى تمالؤا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان كافراً أن هنا رجلا

(١) رواه الإمام أحمد (البداية لابن كثير ٤٦٧) .

يضل الناس ويصددهم عن طاعة الملك ويشد الرعايا ويفرق بين الأب وابنه .. إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب ، وأنه ولد زنية - حني استثاروا غضب الملك فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به .. فأحتال كفار بني إسرائيل علي الفتك بعيسى وقتله .. ومكروا ، ومكر الله .. حيث التقي شبه عيسى على رجل ممن كان معه في المنزل ، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم ورفعهم من روزنة ذلك البيت إلى السماء حيا ... فلما دخل أولئك اعتقدوا الرجل الذي التقي الله عليه شبهه أنه عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ، ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم أن نجى نبيه ورفعهم من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون ، وأسكن الله في قلوبهم القسوة .. وعناد الحق ملازما لهم ، وأورثهم الله ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد .. لهذا قال سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ ﴾ [آل عمران] .

وسينزل عيسى في آخر الزمان كما وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة .. سينزل قبل يوم القيامة ويدعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ^(١) .

- ميراث اللعنة .

لقد أوجب الله عليهم اللعنة والطرده والإبعاد .. فقد نقضوا المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفروا بآيات الله وحججه وبراهينه ، واجترأوا على أنبياء الله وقتلوا منهم ما قتلوا ، وادعوا العلم ، وتمرنن قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان ، ورموا مريم الطاهرة بالزنا فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك .. عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .. وادعوا قتل المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وعيسى هو الذي جاءهم بالبينات والهدى يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله ، ويصور من الطين طائرا ثم ينفخ فيه فيكون طائرا يشاهد طيرانه بإذن الله ... إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه .. ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه وتبجحوا معلنين أنهم صلبوه .

وهذا كله امتحان الله لعباده لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن الكريم الذي أنزله على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات ..

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٣٦٥ - م الطبري ١ / ١٠٦ .

فقال تعالى وهو أصدق القائلين ورب العالمين المطلع علي السرائر والضمائر الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

قال سبحانه : ﴿ وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبِّهَ لَهُمْ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخَلَفُوا فِيهِ لَئِن سَأَلْتَهُمْ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا لَأَنبَاءَ الظَّنِّ ۗ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء] .

فإذا نزل عيسى في آخر الزمان كما وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة تصير الملل كلها واحدة .. هي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ، ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به ، وإنه لحي الآن عند الله ، فقد رفعه الله وهو باعته قبل يوم القيامة .. يؤمن به البار والفاجر ، ويؤمن به كل صاحب كتاب حتى لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن به .

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ۚ قَبْلَ مَوْتِهِ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ [النساء] .

وليكذب اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتصادمت وتناقضت وختلت عن الحق ، وأذاعوا فيه ما ليس فيه ، ورفعوه عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية .
« تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا ، وتنزه سبحانه وتقدس لا إله إلا هو » ^(١) هكذا كانت الحقيقة .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۗ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٦٠﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ۗ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٦١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنبياء] .

٢١ - اليهود والنصارى قبل رسالة الإسلام

وسبقت رسالة الإسلام فترات طويلة ازدادت الأمور فيها من السيئ إلى الأسوأ اليهود والنصارى يدعون أنهم أبناء الله .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ۗ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [المائدة] .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَعِّفُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا يَوْمَهُمْ ﴾ [التوبة].

وغلا قوم في شأن المسيح حتى جعلوه ابناً لله أو ثالث ثلاثة ، وقال بعضهم إن الله هو المسيح ابن مريم .. وغلا قوم في أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أرباباً من دون الله .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة].
وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ [١١٨] أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١١٩﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢١﴾ [الصفوات].
ودون تعليق أو بيان كشفت الآيات الكريمة بنفسها عن عقائد اليهود والنصارى في نظرات مختارة من آيات القرآن الكثيرة والتي تتحدث عن كفرهم وضلالهم وبعدهم عن كتاب ربهم .

وهنا نرد على الآيات بالآيات المختارة أيضاً من آيات القرآن الكثيرة التي تؤكد بالدعائم والحقائق والأدلة والحجج والبراهين ملكية الله وحده لما في السماوات وما في الأرض ، وأنه سبحانه وتعالى المستحق بالتوحيد والعبادة وما دونه شرك وكفر يقود أصحابه إلى السعير .

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [١] خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ ﴿٥﴾ [الزمر].

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِثْرٌ مِّنَ الدُّنْيِ ۗ وَكَبِيرَةٌ نُكْبَرًا ﴾ [الإسراء].

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك - يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد .

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا أحد اصبر على أذي سمعه من الله ... أنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعاقبهم^(١).

٢٢- وأشرقت الأرض بنور ربها .

هكذا كانت موارث الأمم الغابرة منذ أقدم العصور بدأت بأول شرك في بني آدم في قوم نوح الذين عبدوا وداً وسواع ويعوق ونسراً وقوم عاد الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وثمود الذين عبدوا الأوثان، وقوم لوط الذين خرجوا عن الفطرة وفعلوا الفاحشة، وقوم فرعون الذين عبدوا الطاغية فرعون، والمصريون الذين عبدوا العجل في غياب موسى^(٢).

ميراث مظلم أسود على أرض الدنيا ... كله شرك وكفر وظلم واستبداد وفساد وطغيان .

الماجوس عبدوا النار، والنصارى عبدوا المسيح وأمه، وعبدوا الأحبار والرهبان من دون الله .

الهندود لديهم ثلاثمائة وثلاثون مليون إله، وهناك الآن منهم ما لا يزال يعبد البقر « كفر وشرك ووثنية وعبودية خلق الله لخلق الله، واستهزاء برسول الله » وموارث أخري تناقلتها القرون والأجيال قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل ... كل قرن يستوفي أجله ثم يمضي ويأتي آخرون، وكلهم يكذبون ويعصون ويفسدون وإنهم في النهاية لميتون ومحاسبون ... كلهم هالكون وإلى الله راجعون.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم].

روى الأمام مسلم عن رسول الله ﷺ .. إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب^(٣)..... ذلك لما آل إليه حال الدنيا من الشرور والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض، نسى الإنسان خالقه، وفقد رشده، وغرق العالم كله في الشرك إلا بقايا من الخنفاء على ملة إبراهيم، وبقايا من أهل الكتاب الذين سلموا من التحريفات الوثنية ... هذه البقايا ظلت مستعصية على الشرك رغم طوفان الكفر الذي ملأ كل البقاع .

(١) البداية لأبن كثير ٤٦٨ .

(٢) ورد بتفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٥ أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين - والأيكة شجرة كانوا يعبدونها .

(٣) عن عياض بن همام المجاشعي (رواه الإمام مسلم في صحيحه) ، ومن حديث طويل في مسند الإمام أحمد .

لقد انحدرت الإنسانية ، وانسحب رجال الدين من ميدان الحياة ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فراراً بدينهم من الفتن .

ضاعت الأخلاق ، وذهبت الفضيلة وساد الظلم ، وانقطعت الرحمة ، ووضع العلم علي الرفوف وأصحابه مهانون .

انعدمت القيم والمبادئ وفسدت الفطرة ... فاختلت العقائد وفسدت الذمم .
وكم في التاريخ من الأحداث المؤلة بجهل الإنسان وذله وفساد عقيدته ... أجيال وأجيال لا يتغير أحدهم ولا يتعظ بما حدث للذين من قبلهم ورثوا غضب الله ... وجعلهم الله أحاديث تتناقلها القرون بعد أن أصابهم بأسه ونكاله وعقابه .

﴿فَبَعَثْنَا لِقَوْمِي لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون].

.... فضل الناس رشادهم ، وجحدت قلوبهم وعقولهم ، وصاروا أصناما تعبد أصناما ، وأحجاراً مقدس أحجارا واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يتمسح به الرجل إذا خرج للسفر - فذلك آخر ما يصنعه قبل سفره ، ويتمسح به حين قدومه - فذلك أول ما يبدأ به عن دخول داره ... واتخذت العرب مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة يطوفون بها وينحرون عندها وهم يعلمون أن الكعبة هي البيت وهي المسجد يعبدون حجارة صنعوها بأيديهم ، تقاليدهم تدين للقبيلة ميراثاً من الآباء الذين جعلوها موازين لتصرفاتهم وأخلاقياتهم ... لقد دانت أقوامهم لميراث آبائهم من الكفر والفسوق والفجور والجاهلية .

وفي غيبة التوحيد طوي الظلام سواده علي القلوب والعقول ففقد الناس نعمة الأمان والسكينة ، والأمن والطمأنينة - والعرب يشنون الغارات ويسفكون الدماء ويقطعون السيل لنهب التجارات ... وساد بين القبائل الفتك والاعتيال في ظل وثنية كفرت بالعقل ونسيت الخالق .

وأنتهز الأقوياء فرص الجهالة والضلالة - فاستعلوا علي الشعوب ، واستبدوا بالعقول والقلوب ، وسخروا الشهواتهم ومنافعهم خيرات الدنيا وقوي البشر ... فإذا أكثر الناس عبيد للقلّة ، وإذا القلة طبقات يسخر بعضها بعضا . وكل هؤلاء غرقى في الضلالة ، وأسرى للشهوات والأهواء وعبيد للباطل ، وأعداء لكل الإنسانية ولكل القيم والمبادئ والأخلاق والفضائل .

حتى ضجت الأرض مما تنوء به من الشر والبغي والظلم والطغيان والاستبداد والهمجية والفوضى ضجت من الخيانة والفساد والشرك والتفريط في حق الله تعالى وحق عباده .

فسدت العقائد ، وانهارت القيم ، وانعدم الحياء لقد ورث المتكبرون الطاغون كل شيء فاسد من تلك الأمم الفاسدة الغابرة .

وبينما الناس على هذا الحال حائرين بائسين يائسين من حياتهم أمام هذا الظلم والاستعباد بينما هم حيارى تشملهم القوضى والطغيان .

أراد الله تبارك وتعالى اللطف بعبادة ، والرحمة بخلقه .. فأذن سبحانه وتعالى أن يسوق الهداية إلى الأنام ... فبعث إلى الدنيا كلها محمدا عليه الصلاة والسلام بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

مبعوثاً إلى الناصم جميعاً من رب العالمين ليبلغ رسالة السماء الأخيرة للبشر حتى تقوم الساعة، ويهدي الناس جميعاً إلى طاعة الله وحده، وعبادة الله وحده، إلى دين الله وحده - إنه الإسلام دين الله .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا

﴿١٦﴾ وَيَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب] .